الباب الثانى
المعجزات

سنكتب فى هذا الباب فقرتين وتعقيبا:

الفقرة الأولى:

حول المعجزة القرآنية نتحدث بها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

الفقرة الثانية:

معجزات أخرى لرسول الله غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها كل واحدة منها تشهد أن محمدا رسول الله.

التعقيب:

ونتحدث به عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التى يراها الناس خارقة للعادة، ونرجو ألا ينتهى هذا الباب إلا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمدا رسول الله وأنه ليس أمام الانسان الا طريق محمد وحده. يصح للانسان أن يسلكه ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ**﴾ [النحل: ٩].

فإلى الفقرة الأولى من هذا الباب:

* * *

الفقرة الأولى
المعجزة القرآنيّة

يقول عليه الصلاة والسلام: «ما من نبى إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه بشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». ان النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحى الذى أنزل اليهم وبلغوه. أما الرسول محمد ﷺ فمعجزته كانت فى نفس الوحى. فالوحى نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل إذ هو ذاته المعجزة، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون الى أن الآية بين أيديهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وإذا كان القرآن باقيا بحفظ الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين.

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وهذا القرآن من أين أخذته دلك على ذاته، على شرط أن تأخذه بعلم، وتطلب الحق فيه بصدق، فالعالم بأى علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى فى القرآن الحق الذى يعلو أن يكون مصدره بشرا.

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

فالعالم باللغة الدارك لأسرارها البصير فيها يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر.

والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة ، ويرى أن ما فى القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جل عن طريق بشر.

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان، سواء قبل نزول القرآن أو بعده، يرى أن ما فيه من خير ليس مصدره البشر.

والعالم بالكون قوانين وواقعا يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفا، شئ ضخم فيه دليله.

والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها، وما يرتفع بها ويهبط، يستطيع إدراك ربانية القرآن.

والعالم بالتشريع الاجتماعى والجنائى والاقتصادى، وكل الجوانب الأخرى، يمكنه معرفة ذلك، والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك، يستطيع أن يرى الله فى قرآنه.

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها، والعوامل التى تبينها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن فى مصدره الربانى.

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور، يدر كأن كتابا يحكم فى أدق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات، ليس مصدره محمدا الذى لم يسمع كتابا ولم يسمع بقرآن.

إن العالم يرى، وطالب الحق يرى، أما المتكبر، أما الحاسد، أما طالب الدنيا، أما الظالم، أما أعمى القلب المظلم البصيرة، أما هؤلاء فلن يروا، لأنهم ليسوا أهلا للرؤية.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾

[الأعراف: ١٤٦]

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الاسراء: ٤٥-٤٦].

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ان مثل هذا النوع من البشر الذى يجحد، وقلبه مستيقن يمنعه من الاقرار الكبر والبطر، ليس لك الى مناقشته سبيل، اذ الحجة وعدمها معه سواء.

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً ﴾ [النمل : ١٤].

اذ ليس سبب انكاره عدم الحجة، بل السبب فى ذاته هو، وأن الذين عانى منهم رسول الله ﷺ وكل رسول، اهم من هذه الطبقة العاتية، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى اذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتنقوه.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وإليك هذه القصة:

جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن شريق فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، يقولون: فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا آمنت فيه أبدا.

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدى المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣].

اكذبوا وهاتوا مثل سوره.. ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذى ادعى النبوة والوحى كمسيلمة، لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحى سماوى، ولكنه تكلم ليقال: وها أنا يوحى الى ولكنه لم يتحد بوحيه.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم: لن تفعلوا، ولم يفعلوا أليس فى ذلك عجب؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة. فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا.

وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان.

وعجب لأنهم فعلوا كل شئ من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام.

وعجب أن وراث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم، أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد. وهم الأعلم باللغة والأبصر فيها ولبعضهم لسان أشد من السيف، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم.

أليس عجبا أن تجد الخنساء الشاعرة وهى التى قالت لحسان بن ثابت فى سوق عكاظ حين أنشدها:

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع، قال: وكيف؟ قالت: قلت: لنا الجفنات والجفنات ما دون العشر. ولو قلت: الجفان لكان أكثر. وقلت: الغر. والغرة البيضاء فى الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتساعا. وقلت: يلمعن، واللمع شئ يأتى بعد الشئ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: بالضحى ولوقلت: بالعشية لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف فى الليل أكثر طروقا. وقلت: أسيافنا. والأسياف دون العشر. ولو قلت: سيوفنا كان أكثر. وقلت: يقطرن فدللت على قلة القتل. ولو قلت: يجرين لكان أكثر لأنصباب الدم. وقلت: دما. والدماء أكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت. ولم تفتخر بمن ولدوك.

هذه نفسها الناقدة الشاعرة التى ملأت الدنيا نحيبا على أخيها صخر تفقد أولادها الأربعة فى الاسلام بمعركة واحدة فلم تذرف دمعة بل تحمد الله، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن أعماقها.

لقد شعر العرب الأقحاح يوم ذاك أن هذا القرآن الذى يسمعونه لم يخرج من بشر، كانوا يحسون هذا فى أعماقهم سواء فى ذلك مؤمنهم وكافرهم.

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر:

(أ) روى أن أبا بكر رضى الله عنه وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها، سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة، عن كلام مسيلمة، وما كان يدعيه قرآنا فحكوا له فقال أبو بكر: سبحان الله.. ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن ال – أى عن ربوبية – فأين كان يذهب بكم؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره. إن القرآن خارج من الله وليس من بشر.

(ب) وروى أن الوليد بن المغيرة المخزومى جاء الى النبى ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم.. ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتى محمدا لتعرض لما قاله. فقال الوليد: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا.

قال أبو جهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا. ووالله إن لقوله حلاوة وان عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعنى أفكر.. فلما فكر قال: «هذا سحر يؤثر» يأثره عن غيره.

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه - يعنى النبى ﷺ - رأيا لا يكذب بعضكم بعضا. فقالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه.

قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول؟

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول إنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس.

إن هذا الإحساس بربانية المصدر، والتحدى من المصدر نفسه، وظهور العجز قديما وأبدا ما ترك لكافر عذرا ولا حجة.

والناس إما صافى الفطرة يستجيب لأول بارقة نور، فيشتعل نور فطرته، وإما إنسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم، سواء بسبب الوراثة أو الفكر الخاطئ مثل هذا إنما نطالبه بالعلم قبل الحكم، وبالبحث بعد العلم، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أى أبواب العلم أتاها.

(أ) فهو لو درس حياة الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدالنبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جوابا قاطعا، أنه الوحى والنبوة وليس غيرهما، رجل أمى جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلالها أنه تكلم بشئ له علاقة بدين، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علما ولم يقرأ كتابا دينيا أو غير دينى. ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئا، فليست هناك مقدمة تشير الى نتيجة ومع ذلك وإذا بقرآن يتلى، ودين يقوم، ومفاهيم تغير بسر هذا القرآن الذى يتحدى فيسكت المتحدون، وهذا ما أشار القرآن إليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[الأنعام: ١٠٥]

إن دارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل، بل يرى أنه صادر عن علم محيط، وهناك سر المعجزة. ولذلك قال الكافرون: تعلم محمد ودرس. وإذ يثبت التاريخ أن محمدا لم يدرس ولم يتعلم، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر إلا الوحى ولابد هنا من التأكيد على ناحيتين:

الأولى: أن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة

إلا إذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذى يجعلهم يستبعدون معنى الوحى. فإذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علما من أحد فليس أمامهم الا نسبة هذا الكتاب إلى الوحى، وكونه لم يتلق علما من أحد، شئ مشهور، فإن مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل وحداد، والحداد أعجمى. كم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية فى زمن ما كانت الكتب الدينية فيه الا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة، ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شئ مبتوت من عدم وجوده. وكذلك ورقة وليس هناك أى نص تاريخى يشير الى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول ﷺ هو الوحى.

الثانية: أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبى اتبعوه لأنه صادق. ولو رأوا – وهم الذين يخالطونه ليل نهار – ذرة شبهة لأنكروا وبينوا، وهم من هم، فإذا ما ذكر القرآن كما ورد فى الآيات أن النبى ﷺ لم يتلق علما من أحد وكان الذين حول الرسول ﷺ وهم أعرف الناس به صبيا وشابا وكهلا يعرفونه غير هذا لرأوا فى ذلك مدخلا يشكون فيه بالصدق،ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس، لما نفى مثل هذا النفى الذى يمكن افتضاحه بسهولة لو كان.

فإذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية. شهادة التاريخ، وشهادة واقع الحال. وانتفى إمكانية التعلم البشرى، لم يبق الا الوحى مصدرا لأعظم أثر فى تاريخ البشرية.

(ب) وكذلك لو درس الإنسان ظاهرة الوحى نفسها بإمعان وتبصره وأحاط بها إحاطة ما وحكم العلم والعقل. لوجد أن المسألة وحى وليست غير ذلك، وانها النبوة ليس إلا. ادرس مثلا هذه الآثار التى هى بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة.

عن عمر رضى الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المؤمنون: ١]. إلى عشر آيات منها من أولها وقال: من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم وأرضنا وارض عنا» رواه الترمذى.

وفى مسلم عن أبى هريرة قال:

كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه اليه، حتى ينقضى الوحى. وفى لفظ: كان إذا نزل عيه الوحى استقبلته الرعدة. وفى رواية: كرب لذلك، وتربد وجهه، وغمض عينيه، وربما غط كغطيط البكر.

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال:

كان إذا نزل على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها.

وفى رواية البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها:

فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب من العرق فى اليوم الشديد البرد. إن هذه الحالة التى ترافق ظهور النص القرآنى ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضية.

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآنى وقد يكون سورة طويلة، كسورة الأنعام، أو يكون نصا تشريعيا من أدق النصوص التشريعية فى تاريخ العالم كنصوص المواريث.

إن هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن خارجى عن ذات محمد ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

(جـ) وكذلك لو درس الانسان النص القرآنى بإمعان فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة، هى أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر، بل لابد أن يكون من عند الله والنص القرآنى بين أيدينا. فتعالى نستعرض بعض خصائصه وبعضا من معانيه فإننا سنجده أدل على ذاته، وأكثر إقناعا للراغب فى الحق الطالب له، ونؤثر أن نسلك فى هذا الاستعراض الطريق التالى:

إن الأعلم بالقرآن هو صاحب القرآن، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى من يصف مناحى دلالاته وإعجازه، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن، آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن وخصائصه. فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا خصائص القرآن بشكل أجود، وأكثر إحاطه، وأقرب إلى السهولة: مع ملاحظة أننا سنذكر إن شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب

الشاك، ويرتاح قلب المؤمن بالعلم الذى لا يدحض ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج: ٥٤].

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله، أن السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة، وأنه لا صلة بين الآيات وإن كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة، فان السورة ككل فاقدة هذا التماسك، وكما يتصورون هذا التصور فى السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله، ولسوره كلها فلا رابطة بين السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة.

وهذا التصور أقل ما يقال فيه: إنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير، وعلى بساطة فى الفكر وضحالة فى النظر. فما كان القرآن ليكون كذلك، وقد رتب الله آياته فى السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذى نراه. فإن السيد رسول الله ﷺ كان يؤمر بأن يضع الآية فى مكانها من السورة، والسورة فى مكانها من القرآن، فترتيب الآيات فى السورة الواحدة بوحى، وترتيب السور فى القرآن بوحى، والله عز وجل حكيم على، وقد وصف كتابه بأنه على وحكيم: ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الزخرف: ٤].

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيبا، وأكثر انسجاما من كتاب الله. وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة. نموذجا نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها، ونموذجا نتبين فيه الصلات بين سور القرآن عامة.

* * *

المثال الأول من النموذج الأول

سورة (ق)

افتح المصحف الآن على سورة (ق) وتأمل:

تبدأ السورة هكذا:

﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا**

شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [١-٤].

تبدأ السورة بمقدمة هى الآية الأولى ثم يأتى حرف «بل» ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت. واستبعادهم لهذه المسألة، ثم يأتى الرد عليهم أنه وإن أصبحوا ترابا فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم، وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية. إذن بايجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة إشكالا للكافرين ورد عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ فى المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة «بل» كما بدأ المقطع الأول بكلمة «بل» وفيه حديث عن تصورات الكافرين ورد عليهم كالمقطع الأول يقول:

﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ** ﴾ [ق: ٥].

هذا موقف الكافرين من الوحى الذى أنذرهم به الرسول، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتى الرد: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾ [ق: ٦-١١].

هذا الجزء الأول من الرد، وفيه لفتهم القرآن الى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته، حتى أوصلهم إلى رؤية احياء البلد الميت بالمطر، والنبات يكون ميتا ينزل عليه المطر فيحيا و ... «**كذلك الخروج**» بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا يأتى الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الإنسان وكذبوا رسول الله.

ولا زلنا حتى الآن فى المقطع الثانى:

﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ** ﴾ [ق: ١٢-١٥].

رأينا فى بداية هذا المقطع: «**بل كذبوا بالحق لما جاءهم**» ورأينا الرد الأول، وتتمة للرد يذكر القرآن مشيرا: كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم.. وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين. يجعلنا نتعجب ونستنكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة: «**أفعيينا بالخلق الأول**» اذا كان الله خالق الإنسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية؟

وبذلك ينتهى المقطع الثانى ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة «بل» كما بدأ المقطع الأول والثانى وفيه حديث عن نفس المضمون يقول:

﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [ق:١٥]. الكافرون شاكون فى خلقهم مرة ثانية ويأتى الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة «ولقد» كما كان الجواب فى المقطع الأول مبدوءا بكلمة «قد» عند قوله: « **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم**».

يقول:

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ١٦-٣٧].

وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الرد على شكهم، وهى مرحلة تذكر بخلق

الإنسان، وعلم الله بكل ما يجول بخاطره، ورقابة الملائكة على الإنسان، وتذكير الإنسان بالموت، وبالمصير الفظيع الذى أعده للكافر. وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقى، وإن هذا وعد من الله للمؤمن، وتختم هذه المرحلة بالإعلان أن الإنسان ذا القلب وأن الانسان الذى يصغى بتدبر، يكفيه هذا البيان ليتذكر، وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة:

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [٣٨-٤٥].

يذكر هذا القسم بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما فى مدة قصيرة بلا تعب وفى هذا الكلام رد مقنع على الشك، هذا الاله لا يعجز عن إعادة الإنسان مرة ثانية.

وهل شك الإنسان فى محله؟

ثم يأمر الرسول ﷺ بالصبر على أقوالهم ـ الآنفة الذكر ـ التى رأيناها فى المقطع الأول «**أئذا متنا وكنا ترابا، ذلك رجع بعيد**» وفى المقطع الثانى: «**بل كذبوا بالحق لما جاءهم**» وفى المقطع الثالث: «**بل هم فى لبس من خلق جديد**» والعبادة لله ويؤكد له أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأن مهمته أن يذكرهم. فخاتمة السورة إذن تخاطب النبى وتعلمه كيف ينبغى أن يكون موقفه.

وكما ترى من استعراض هذه السورة، فإن التناسق والترتيب والوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح فى السورة. فإذا ما أتى إنسان مغرض أو معرض، وقال: بأنه لا رابط بين الآيات فى السورة الواحدة، فإنه لاشك يدلل على فساد ذوقه، وعمى بصيرته وليس ذلك بضار القرآن شيئا.

* * *

المثال الثانى من النموذج الأول

سورة الواقعة

تبدأ السورة فى الحديث عن الساعة:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثّاً ﴾ [١-٦] وبعد هذه المقدمة ننتقل الى تصنيف الناس فى ذلك اليوم:

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [٧-١٠] ثم تبين ما أعد لكل صنف من هذه الأصناف مبتدئة بالسابقين لأنهم الأفضل:

﴿ أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾ [١١-٢٦].

ثم تبين ما أعد لأهل اليمين:

﴿ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [٢٧-٤٠].

ثم تبين ما أعد لأهل الشمال:

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ *

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٤١-٥٦].

ويبقى بعد ذلك عندنا فى السورة مقطعان كل منهما ينتهى بكلمة: «**فسبح باسم ربك العظيم**».

يبدأ المقطع الأول بهذه الآية: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ [٥٧] الخطاب كما ترى من الله للانسان يذكره فيه بأنه خلقه ويطالبه فيه أن يصدق، وبديهى أنه يطالبه هنا بالتصديق فى اليوم الآخر الذى كان الحديث السابق كله عنه، ثم يبدأ المقطع يناقش الإنسان لإقناعه بالتصديق، ونجد أن المقطع مقسم الى أربعة أقسام كل قسم مبدوء كلمة «**أفرأيتم**» وكل قسم يلفت الإنسان للإيمان بالله والتصديق بأنه الخالق للوصول بعد ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر.

الفقرة الأولى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٨-٦٢].

الفقرة الثانية: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [٦٣-٦٧]

الفقرة الثالثة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [٦٨-٧٠].

الفقرة الرابعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [٧١-٧٤]

ينتهى المقطع وقد أثبت أن الله هو الخالق العظيم، وبإثبات هذه الحقيقة لا يسع الإنسان إلا أن يصدق بما أخبره الله عنه بأنه كائن يوم القيامة.

ويبدأ المقطع الأخير فى السورة:

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [٧٥-٨٢] فيتقرر فيه أولا أنه لا مجال للتكذيب بشئ أخبر به القرآن، وإنه لعقوق بالإنسان أن يكذب. ثم يستمر المقطع مبينا أن الموت لابد منه، وأنكم عاجزون أيها البشر عن رده:

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٨٣-٨٧]

وإذا تقرر هذا كله فإن الذى أخبرتم عنه فى أول السورة حق كله:

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [٨٨-٨٩].

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [٩٠-٩١]

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [٩٢-٩٤]

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [٩٥-٩٦].

وبذلك تنتهى السورة، مرتبطا أولها بآخرها، معروضة أدلة أولها وآخرها فى وسطها متناسقة كل ما كان من عند الله ولكن العمى لا يبصرون.

* * *

المثال الثالث من النموذج الأول
سورة الأنبياء

تتألف السورة من مقدمة هى آية واحدة، وسبعة مقاطع المقطع الأول مبدوء بكلمة «ما» والمقاطع الست الأخرى مبدوءة بكلمة «وما» فكأن حرف العطف الواو «ما» فى المقاطع الست عليها فى المقطع الأول. وسنرى باستعراضنا لمقاطع السورة

ومقدمتها، ارتباط المقاطع بعضها ببعض، وانسجام الكل مع المقدمة ، لتظهر أخيرا الوحدة المتناسقة فى السورة كلها.

تبدأ السورة بهذه الآية: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [١] فالآية تتحدث عن غفلة الناس وإعراضهم مع قرب الحساب.

ثم يبدأ المقطع الأول:

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢-٦] .

يتحدث المقطع عن موقف الناس من الوحى، وأنهم يستقبلونه بغفلة. وإعراض واتهام صاحبه بأنه بشر بلا ميزة، وأنه ساحر وأن الوحى محض تخيلات وأوهام، وأنه مختلق وأن الرسول إنسان عاطفى غير ذى عقل علمى، وأنهم يطلبون آية كدليل. وفى المقطع تذكير بعلم الله، وتذكير بأن ذلك طبيعة الإنسان فى كل عصر.

ويأتى المقطع الثانى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [٧-١٥].

والمقطع كله رد على أقوالهم فى المقطع الأول وتوكيد للحقائق الموجودة فيه بالمقطع يقول:

صحيح أن الرسول بشر ولكن ميزته عليكم أنه يوحى إليه. يعرف هذا كل أمة بعث بها رسول، وهؤلاء الرسل فيهم كل صفات البشرية، ولكنهم مؤيدون من الله. منصورون على من خالفهم، وأن هذا القرآن وحى ككل وحى سابق، فينبغى أن يعقل المكلفون فيه هذه الحقيقة، وليعلموا أن قرى كثيرة لم تستجب لوحى الله فكان عاقبتها الهلاك والدمار.

ولاحظ نهاية المقطعين:

نهاية المقطع الأول:

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٦].

ونهاية المقطع الثانى:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ إلى ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [١٥].

ويأتى المقطع الثالث:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعبينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ من لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعلينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا من دُونِه آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [١٦-٢٤].

لقد بين المقطع الأول والثانى حالة الكافرين فى الإعراض عن الوحى، وفى الغفلة واللهو والموقف غير الجدى. ولما كان هذا كله نابعا عن التصور الخاطئ لقضية خلق الكون وعن عدم معرفة الجلال الإلهى وحقوقه، وعن الشرك والتصورات المضحكة التى لا تقوم على دليل. فإن هذا المقطع الذى مر معنا تحدث عن هذه المعانى كلها ويلاحظ

أن المقطع قد ختم بهذه الجملة: «**بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**». وهى تبين ارتباط هذا المقطع بما قبله وبالمقدمة.

وإذ يقرر المقطع الثالث هذه المعانى كلها مما له علاقة بجلال الله، وفساد الشرك وكونه لا دليل عليه، ليصحح موقف الانسان فى الحياة، فان المقطع الرابع يأتى ليؤكد وحدانية الله، وأنها الدعوة التى حملها كل رسول، وأن أى دراسة للكون توصل الى هذه الحقيقة:

أن خالق هذا الكون واحد.

يقول المقطع الرابع:

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا من المَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [٢٥-٣٣].

ويأتى بعد ذلك المقطع الخامس وهو أطول المقاطع فى السورة. ويلاحظ منذ بدايته، انسجامه مع السورة كلها فى خطابه ومعانيه. فهو مثلا مبدوء بكلمة: «وما» ككل المقاطع ويخاطب الرسول ﷺ كذلك كمثلها لاحظ: بداية المقطع الثانى الذى بدأ الرد على الأفكار التى طرحها الكافرون.

«**وما أرسلنا قبلك إلا رجالا**».

وبداية المقطع الرابع:

«**وما أرسلنا من قبلك من رسول..**».

وبداية المقطع الخامس الذى فيه نظرنا الآن: «**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد**».

ولطول المقطع نستعرض جملة معانيه حسب تسلسل آياته ثم بعد ذلك نذكر ارتباط هذا المقطع بما قبله.

تذكر الآيات الأولى فيه أن محمدا ﷺ ميت ككل بشر. واذا مات هو فلن يخلد أعداؤه، وما في الحياة كله ابتلاء، والمرجع الى الله، فمن ينبغي أن يخشى من الموت: ﷺ أم هم؟ تقول الآيات:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [٣٤-٣٥].

ثم يتحدث المقطع عن موقف الكافرين إذا رأوا رسول الله ﷺ وكلامهم وإيعاد الله لهم، وسؤالهم متى تحقيق هذا الوعيد والجواب:

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ * خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [٣٦-٤٠].

ثم يبين المقطع أنه إذا استهزئ برسول الله ﷺ فإن كل نبي سابق قد استهزئ به:

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [٤١].

ثم يؤمر الرسول ﷺ أمرين كل منهما مبدوء بكلمة «قل».

الأول: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [٤٢-٤٤].

وواضح أن هذا رد على موقفهم، وتبيان لهم أنهم لو عرفوا الله حق المعرفة ما وقفوا هذا الموقف.

الثانى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾ [٤٥]

وفى هذا كذلك رد عليهم أن محمدا ﷺ لا يقول من عند نفسه فاذا لم يسمعوا فهم السبب. فاستهزاؤهم فى غير محله بل هم الجديرون بالاستهزاء.

ثم يبين المقطع حالهم إذا عاقبهم الله فى الدنيا وماذا أمامهم فى الآخرة:

﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [٤٦-٤٧].

ثم يبدأ المقطع يقص علينا من قصص الأنبياء بحيث نأخذ من كل قصة نبى عبرة تنسجم مع موضوع السورة. وقبل أن نبدأ استعراض هذه القصص واحدة فواحدة، ونرى انسجام كل قصة مع السورة فإننا بشكل عام:

نلاحظ فيما مضى معنا من المقطع. أن الحديث منصب على نفس المعانى التى مرت فى المقاطع السابقة: موقف الكافرين من الوحى والرسول، وعاقبة هذا الموقف ومناقشته.

ونبدأ الآن فى استعراض القصص:

١- ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ [٤٨-٥٠].

وبينة علاقة القصة بالسورة، فالسورة من بدايتها تتحدث عن الذكر المنزل «**ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث**» والقصة هنا تشير الى أن ما أنزل على محمد ﷺ قد أنزل مثله على موسى وهارون، فلا مجال إذن لإنكاره، ويلاحظ أن القصة الأولى منسجمة تمام الانسجام مع معانى المقطع الأول فكأنها مثال عليه.

٢- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [٥١-٧٣].

٣- ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٧٤-٧٥]

٤- ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٧٦-٧٧].

ويلاحظ أن القصص الثلاث هذه: قصة إبراهيم ولوط ونوح عليهم السلام لها علاقة فى المقطع الثانى، إذ أنها تؤكد نفس معانيه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا

يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٩]

لاحظ كلمة «فأنجيناهم» هنا وورودها فى القصص الثلاثة.

٥- ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [٧٨-٨٢].

٦- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [٨٣-٨٤].

٧- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٨٥-٨٦].

٨- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٧-٨٨].

٩- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [٨٩-٩٠]

١٠ -﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [٩١-٩٢]

هذه عشر قصص وهى بمجموعها وهذه الآية الأخيرة التى أعقبتها تؤكد المقطع الرابع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء: ٢٥]

وكما ترى فإن المقطع الخامس يؤكد بمجموعه المعانى الموجودة فى المقاطع السابقة، ولعل خاتمة المقطع يتبين لك فيها هذا الارتباط. فقد تحدث عن اقتراب يوم القيامة وقد بدأت فيه السورة، وعن مصير الكافرين والمؤمنين فى ذلك اليوم، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وتأمل تتمة آيات المقطع:

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ *لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [٩٣-١٠٦].

وأخيرا يأتى المقطع السادس ليبين:

أن محمدا ﷺ رحمة للبشر وأنه مأمور أن يدعو الناس إلى التوحيد والاسلام، وأن عليه أن يبلغ، وأن يوم القيامة آت، وأن الله يعلم السر والجهر وتختم السورة بدعاء للنبى ﷺ.

وإذا تأملت المقطع الأخير تجد ارتباطه الوثيق بكل مقاطع السورة، وتذكر الآن معانى السورة ثم تدبر آخر مقطع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ *إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

[١٠٧-١١٢]

* * *

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السور الثلاث وضح لنا تناسق السورة القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها، وهذا الذى رأيناه هنا نستطيع أن نراه فى كل سورة قرآنية من الفاتحة إلى سورة الناس بما فى ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران.. ونتيجة لهذا القول نقول: إن الترتيب فى كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله فى بابه لا يستطيع أن يدركه إلا إنسان بلغ الذروة فى نضج التأمل. فهل يمكن أن يكون هذا وليد أمية؟

* * *

(ب)

والآن ننتقل لإثبات الأمر الآخر:

أن القرآن كله مترابط فيما بينه، يشكل وحدة منتظمة مترابطة.

أول سورة من سور القرآن هى الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معانى القرآن كله. فمعانى القرآن كله تدور حول العقائد، والعبادات، ومناهج الحياة، والسورة بدأت بالعقيدة: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وثنت بالعبادات: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وثلثت بمناهج الحياة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وبينت أخيرا أن منهاج المسلمين متميز: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١] ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة: ﴿ اهْدِنَا ﴾ ويأتى فى أول سورة البقرة ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١-٢] فالرابطة اذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة.

ننتقل الآن إلى سورة البقرة والسور التى تليها إلى سورة يونس وهى المسماة بالسبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور:

نظرة على سورة البقرة نلقيها ترينا:

١- أن السورة مبدوءة بأحرف «ألم» ويأتى بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس فى المصطلح القرآنى، متقين، وكافرين، ومنافقين، وتصف كلا من هؤلاء.

٢- تأتى بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة «يا أيها الناس» وفيها دعوة الى الناس جميعا أن يكونوا من الفئة الأولى «المتقين» وأن طريق التقوى هو عبادة الله، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله، وكون القرآن لاشك فيه، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه.

٣- تأتى بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن، وموقف المهتدين منه، وضلال الضالين به وصفاتهم ﴿ **الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [٢٧] ومناقشة من يكفر بالله عز وجل.

٤- تأتى بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة «هو» تتحدث عن الله أنه خلق كل شئ فى الأرض للبشر.

٥- تأتى بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام، ونزوله الى الأرض، وتختم بالقاعدة التى تحاسب عليها البشرية ﴿ **فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [٣٨-٣٩].

بعد ذلك يقص الله من قصص بنى إسرائيل وموقفهم من الهدى المنزل عليهم. ثم من قصة ابراهيم عليه السلام وعبوديته لله ودعواته ووصاياه، ثم قواعد حول قبلة المسلم بعد قصة ابراهيم، ثم أوامر لها علاقة بالعبادة والتقوى ثم فريضة الله على المسلمين فى أمر القتال الآية (٢١٦):

٦- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم تأتى آية مبدوءة بكلمة « يسألونك » الآية فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات فى أمور كثيرة. حتى تختم السورة. ومن السهل جدا على دارس السورة أن يجدد وحدتها، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد إثبات الصلة بين هذه السورة والسور الست التى تليها.

ولعلك تدهش إذا قلنا لك إن السور الست الطوال التى تأتى بعدها إنما تشرح وتفصل هذه المقاطع التى ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل. وهى تشرح هذه المقاطع بالتسلسل الموجود فى سورة البقرة وكأن هذه المقاطع تحتاج الى زيادة إيضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقطعا وهاك الدليل:

١- سورة البقرة مبدوءة بأحرف « ألم » وسورة آل عمران مبدوءة بنفس الأحرف. سورة البقرة مبدوءة بآية «**ذلك الكتاب لا ريب فيه**». سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [٢-٣].

العشرون آية الأولى فى البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين. سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث، والحدود التى ينبغى أن تقف عليها الجماعة المسلمة فى علاقتها مع الفئتين الأخريين.

٢- بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتى الآية المبدوءة بـ«**يا أيها الناس**» والتى تبين للانسان طريق التقوى وأن التقوى هدف ﴿ **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [٢١].

وتأتى سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة بآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ نفس النداء نفس المعانى، وكأنك عندما تدرس النساء إنما تدرس التقوى طريقا وسلوكا.

٣- وبعد هذه الآيات تأتى الآيات التى مرت معنا، والتى تتحدث عن نقض العهد. وتأتى بعد سورة النساء سورة المائدة وهى مبدوءة بالأمر بالوفاء

بالعقود ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ وفى السورة أكثر من آية تذكر العهود.

﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [المائدة: ٧] وكأن السورة تذكر المعانى الأساسية للعهود الأساسية التى من تمسك بها اهتدى بهدى القرآن والا ضل.

٤- وبعد آيات البقرة هذه تأتى الآية ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ [٢٩] وتأتى بعد سورة المائدة سورة الأنعام التى تتردد فيها كلمة «هو» «وهو» مرات كثيرة. الآية الثانية ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ** ﴾ والآية [١٨] ﴿ **وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ والآية [٦٠] ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم** ﴾ و ....

وهكذا مرات، وآخر آية فى السورة تكاد تكون معنى حرفيا لآية البقرة ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾]الأنعام: ١٦٥] فكأن سورة الأنعام كلها تفصيل لمجمل الآية فى البقرة.

٥- وتأتى بعد ذلك فى البقرة قصة آدم، وتنتهى بالقاعدة التى ذكرناها «**فمن تبع هداى ..**» وتأتى بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثالثة فيها ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ والآية الأولى فيها تقول: ﴿ **المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا ..** ﴾ وتأتى بعد ذلك قصة آدم وقصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكأن السورة كلها عرض عملى وتاريخى ومناقشة فى جو القاعدة التى انتهت بها قصة آدم فى سورة البقرة.

٦- وكما أنه بعد آية القتال فى سورة البقرة تأتى كلمة: «**يسألونك**» وفيها استفتاء عما له علاقة فى القتال، فإن سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوءة بكلمة «**يسألونك**».

والسورة كلها والسورة التى بعدها وهى سورة «التوبة» تتحدثان عن القتال

وأدب الحرب، ويلاحظ أن السورتين فى القرآن مكتوبتان بلا فاصل «البسملة» فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التى ذكرها الله فى سورة البقرة.

ونظن أن قد وضحت الرابطة التى تربط هذه السور فيما بينها.

ولكنك سترى أعجب إن شاء الله تعالى:

١- سورة آل عمران شرحت العشرين آية كلها فى البقرة أما سورة يونس فتفصل الآية الأولى من سورة البقرة ﴿ **الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ لاحظ الآن سورة يونس: تبدأ السورة بهذه الآية:

﴿ **الر * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ** ﴾.

ثم تقول: ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** ﴾ إذن تبدأ السورة بتحطيم الشبه الموجودة فى أذهان الناس حول القرآن، ويستمر هذا المعنى حتى ينتهى عند الآية (٣٧) بهذا الشكل:

﴿ **وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ** ﴾ ثم يأتى حرف «أم» فكأنه استمرار للمقطع المبدوء بحرف الاستفهام الهمزة «**أكان**»...

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [٣٨].

إذن لازالت السورة تدحض شبه المرتابين والمكذبين، ويستمر هذا المقطع حتى الآية (٥٧) المبدوءة بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ وكأن السورة حتى هذه الآية تفصل الجزء الأول من الآية الأولى من سورة البقرة ﴿ **الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ وتأتى الآية (٥٧) لتبدأ السورة فى تفصيل الجزء الثانى من الآية ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ تقول آية يونس: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وتختم السورة بهذه الآية [١٠٤-١٠٩]: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ**

اللَّهَ الَّذي يَتوفَّاكُمْ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ منَ المُؤمنينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ منَ المُشْركينَ * وَلاَ تَدْعُ من دُونِ اللَّهِ مَا لاَ ينفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالمينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فَلاَ كَاشفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُردْكَ بخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لفَضْلِهِ يُصيبُ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لنَفْسه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بوَكيلٍ * وَاتَّبعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكمينَ ﴾ وبهذا تنتهى السورة.

٢- وسورة النساء شرحت التقوى فى الآية (٢١) من سورة البقرة، أما سورة هود فإنها تفصل الأمر «أعبدوا» من نفس الآية.

واقرأ الآن سورة هود تجد: ﴿ الر كتَابٌ أُحْكمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ولعلك لاحظت كلمة ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ثم استمر فى التلاوة لتجد فى الآية الخامسة والعشرين:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمه إِنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُّبينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية الخمسين تجد ﴿ وَإِلَىٰ عَاد أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية (٦١) تجد ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم استمر حتى الآية (٨٤) تجد ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وإلى آخر آية فى السورة ﴿ وَللَّه غَيْبُ السَّمَوَات وَالأَرْض وَإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْه وَمَا رَبُّكَ بغَافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولعلك لاحظت فيها الأمر «**فاعبده**».

٣- وسورة يوسف تبين مقنعة للانسان أن هذا القرآن من عند الله فهى تفصل - والله أعلم - الآية التى بعد ما مر فى البقرة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدنَا فَأْتُوا بسُورَةٍ مِّن مِّثْله ﴾ فان سورة يوسف تبدأ ﴿ الر تلْكَ آيَاتُ الكتَاب المُبينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ من قَبْله لَمنَ الغَافلينَ ﴾ [١-٣] وتختم السورة ﴿ لَقَدْ كَانَ في قَصَصهمْ عبْرَةٌ لأُوْلي الأَلْبَاب مَا كَانَ حَديثاً يُفْتَرَى وَلَكن تَصْديقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْه وَتَفْصيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمنُونَ ﴾ [١١١].

٤- وبعد الآية [٢٥] فى البقرة تأتى الآيتان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ من رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ به كَثِيراً وَيَهْدِي به كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ به إِلاَّ الفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [٢٦-٢٧]

وادرس الآن سورة الرعد لتجدها تفصيلا لهذه المعانى :

فمما يلفت النظر فى سورة الرعد ، أن الآية الثانية فيها ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴾ وأن الآية الثامنة ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ .

والآية [٢٦] ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ..

فكأن كل مقطع فى السورة مبدوء بكلمة «الله» فالمقاطع كلها تفصل اذن آية البقرة الآنفة الذكر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي ﴾ فإذن سورة الرعد ، تعرفنا على الله أكثر ويلاحظ أنه فى المقطع الثانى من سورة الرعد ، ترد هذه الآيات فى خاتمته ، وهى كما ترى تأكيد لمعنى الآيتين المذكورتين فى البقرة :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّه وَلاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراًّ وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ من آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه من بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

[الرعد : ١٩-٢٥]

ولا يشك الانسان وهو يقرأ آيتى البقرة [٢٧-٢٨] ويقرأ سورة الرعد أن سورة الرعد تفصيل لتلك الآيتين.

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا مثالين يثبتان وجود الترابط بين سور القرآن ككل أن نضع أسس نظرية فى هذه القضية فنقول:

إن كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلا متكاملا، وهذه المجموعات كلها إنما تفصل المعانى التى ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل، وقد رأينا مثالين على ذلك، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرضت الأسس النظرية والعملية للإسلام، بحيث أن من يقرأ أى مجموعة من هذه المجموعات، يتذكر بكل الحقائق الأولية فى الإسلام. كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجاميع قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى، مما يبهر الإنسان ولا يستطيعه مخلوق: أن تعرض قضية واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض. المعانى فى البقرة مرتبة ترتيباً معينا كل مجموعة سور تشكل وحدة. تعرض المعانى القرآنية على ترتيب عرضها فى سورة البقرة، هذه المجموعة تتدرج من الطول الى القصر، كل وحدة تذكر الإنسان بالمعانى الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها. ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض فى سورة البقرة مع فارق القصر، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر؟!

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات وتفهيم معناها ومما وصف الله به كتابه:

١- ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

٢- ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣- ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

فبسبب مما رأيناه كان القرآن مفصلا، وكان متشابها، وكان مثانى، وكان مذكرا، لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغى أن يتذكره الانسان. وبمثل هذا وبمثل ما يأتى بعد هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبدا عرفه البشر.

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره، ما أشار اليه القرآن بقوله: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الفرقان: ٦] ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

لقد أخبر الله فى الآية الأخيرة أنه سيكتشف للناس خفايا هذا الوجود، ودقائق هذا الإنسان وأن هذا الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق، إذ ما سيعرفه الانسان سيطابق ما فى القرآن وهذا لا يكون إلا إذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السموات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة فى حد ذاتها، تحققت بما كشف الإنسان حتى الآن فان ما سنذكره من أمثلة سيكون برهانا كاملا على نسبة القرآن لله جل جلاله:

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية، مما لم يكن معروفا قطعا قبل أربعة عشر قرنا فى أى مكان من العالم، فضلا عن أن يكون معروفا فى جزيرة العرب حيث الأمة الأمية، التى كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية، فكان حديث المحيط بسر كل شئ. وكلما تقادم الزمان أكثر كلما ظهرت دقة القرآن أكثر. فيصبح الانسان أمام الحقيقة التى لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد، الله رب العالمين، وهذه أمثلة وفى القرآن المزيد لمستزيد:

١- قال الله تعالى:

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ** ﴾ [النحل: ٦٦].

يقول العلم اليوم أن الحليب قبل أن يصبح فى الثدى، يمر على عمليتى تصفية. الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبى إلى الأمعاء، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها فى الدم ومبقية الفضلات فى الأمعاء حيث تطرح خارج الجسم. وأما المواد الممتصة التى طرحت فى الدم فان

قسمها منها يغذى جسم الكائن الحى وقسما آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله الى الضرع حليبا خالصا سائغا للشاربين.

إذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولا من الفضلات ثم من الدم.

وقال القرآن: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ(١) وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً ﴾..

وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة، وما يملك انسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة، يكفى وحده لإثبات الوحى من الله بهذا القرآن.

٢- قال الله تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

«منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات، استطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء فى طبقات الجو العليا، إذ يشعر الصاعد فى هذا العلو ببعض الصعوبة فى التنفس ويحس بالضيق، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع فى السماء يشعر بعوارض الضيق، ولذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون إلى الارتفاعات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا. ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود فى الجبال بل عبرت عن الصعود فى السماء. كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق».

٣- قال تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

---

(١) الفرث: هو الفضلات.

وقال: ﴿ سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

القاعدة فى اللغة العربية أن « كل » إذا أضيفت إلى معرفة عمت أجزاؤها وإذا أضيفت إلى نكرة عمت أفرادها وفى الآية الأولى أضيفت « كل » إلى نكرة لذلك تعم جميع الأشياء.

يقول صاحب ظلال القرآن: « وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض وربما فى هذا الكون، إذ أن التعبير لا يخصص الأرض قاعدة الزوجية فى الخلق وهى ظاهرة الأحياء ولكن كلمة شئ تشمل غير الأحياء أيضا، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية، وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية فى كل شئ. حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير.

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول وهى لا تكاد..

إن بناء الكون كله يرجع الى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب.

٤- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾

[الحج: ٥]

وقال: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ من سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً

﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ١-٢]

يتم الاخصاب بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة فى أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الانسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصرا فى تلك الخلية الواحدة، ثم تنحدر فى اتجاه الرحم مستغرقة فى رحلتها ما يقارب الأسبوع، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتنهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم وليس أدق من كلمة العلقة فى وصف شكل ونشاط الجنين فى هذه المرحلة ثم تأخذ هذه العلقة فى النمو، وتأخذ خلاياها فى التنوع، ويكون شكلها مستديرا بغير انتظام، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها فى (برك) صغيرة لا فى شرايين محددة، إن شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم الممضوغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات.

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادى هو الغضروف الذى تترسب حوله مادة العظم فيما بعد، وتنشط الخلايا فى كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التى تكسو العظام المتكونة لحما.

وهنا يقف الإنسان مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحى. وذلك أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم الا بعد ظهور خلايا العظم، وتمام الهيكل العظمى الغضروفى للجنين. وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى: ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ فسبحان العليم الخبير.

فى كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما إن يوشك الشهر الثانى للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر.

إن الجنين الإنسانى مزود بخصائص معينة هى التى تسلك به طريقه الانسانى فيما بعد، وهو ينشأ ﴿ **خَلْقاً آخَرَ** ﴾ فى آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيوانى عند التطور الحيوانى لأنه غير مزود بتلك الخصائص. ومن ثم فانه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور الى مرتبة الانسان تطورا آليا كما تقول النظريات المادية، فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الالهية التى بها صارت سلالة من الطين إنسانا. واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتى ينشأ بها الجنين الانسانى خلقا آخر. إن الانسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى، ثم يبقى الحيوان حيوانا فى مكانه لا يتعداه، ويتحول الانسان خلقا آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان إلى نوع الانسان ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ** ﴾.

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه «معجزات العلم»[1] حين يصنع الانسان جهازا يتبع طريقا خاصا فى تحريكه دون تدخل مباشر من الانسان. فأين هذا من سير الجنين فى مراحله تلك وأطواره وتحولاته، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة فى طبيعتها وتحولات كاملة فى ماهيتها؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضى العيون مغلقى القلوب. لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب، وأن مجرد التفكير فى أن الإنسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته فى تلك النقطة الصغيرة التى لا تراها العين المجردة، وأن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك فى مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر. فإذا هى ناطقة بارزة فى الطفل مرة أخرى. وإذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوارثات البشرية العامة. هذه الوارثات وتلك التى كانت كامنة فى تلك النقطة.

إن مجرد التفكير فى هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب.

كل هذا يتم فى القرار المكين الذى هو الرحم وإن من يدرس تشريح الرحم

---

(١) لا يجوز إطلاق المعجزة إلا على الأمر الخارق الذي يجري على يد الرسل بقدر الله.

وموضعه المكين الأمين فى أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك، ثم يرى هذه الأربطة العريضة، والأربطة المستديرة، وهذه الأجزاء من البريتون التى تشده الى المثانة والمستقيم، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط. تطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل، وتقصر الى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة. إن من يدرس كل ذلك ثم يعرف تكوين الحوض وعظامه يعرف جيدا صدق قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾.

٥- ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣].

إن العوامل المسببة للأمطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير اليها إشارات واضحة كما سنرى فى هاتين الآيتين كما ضمت الآيتان معانى أخرى.

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح «باللواقح» على أنها لواقح للزرع والشجر وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية. إذ لو كان ما ذهبوا اليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون «للواقح» معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك ـ من ناحية ـ شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول، أو السبب والمسبب، وما عليك الآن إلا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الإعجاز فى الآية:

ان تكاثف السحاب مطرا أثر عن الكهربائية، إذ من السحاب ما كهربائيته سالبة، ومنه ما كهربائيته موجبة، والرياح هى أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر. وهذا هو المراد كما هو ظاهر فى الآية من وصف الرياح بأنها لواقح.

فالملاحقة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائى والتلقيح النباتى فكما تتحد الخليتان فى حالة التلقيح النباتى لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك فى حالة اتحاد سحاب وسحاب إذ ينشأ عنهما برق ورعد ومطر، إذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائى السحابى.

فآية الحجر تلك هى مظهر من مظاهر الاعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث.

ثم زادت آية النور معنى الإعجاز ﴿ **ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ** ﴾ فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ فى الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد.

فإذا كان من السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيما، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض - كما هو **الغالب** - نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والإنسان لا يعرف كثيرا عن الظروف التى يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم. هذا الاضطراب قد أشارت إليه الآية والى طبيعته إشارتين:

الأولى: حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله بالجبال. ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وأنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعدما ركبوا الطائرات.

والثانية: حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها

على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك ﴿ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ** ﴾.

٦- ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً** ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

نحن نعلم أن الجو هو تراكب طبقات متتابعة، تقل فيما بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض، وفى وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئى منحنيا طبقا للقانون الثانى للعالمين «الهيثم - ديكارت» وهو قانون الانكسار.. إن قانون «الهيثم - ديكارت» يقول بأن الشعاع الضوئى الذى ينتشر فى مجال ذى كثافة متغيرة باستمرار يخط فى مسيره خطا منحنيا ذا تجويف متجه نحو النقط الأكثر كثافة وفى هذا المجال يقبض الظل ﴿ **قَبْضاً يَسِيراً** ﴾ بالنسبة لما قد يكون عليه فى الفراغ الذى لا يوجد فيه انكسار. ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الانسان مما لم يكن معروفا زمن تنزل القرآن وبين القرآن.

٧- ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٧] وهكذا يبدو الكون من خلال الآية - بسبب استعمال اسم الفاعل «موسع» الذى يفيد الاستمرار فى هذه الحالة - وكأنه فى حالة توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهى التى هالت «آينشتين» عندما اكتشف عالم الطبيعة «هابل» أن الكواكب السديمية تبتعد عن «سديمنا» واستنبط عالم الرياضة البلجيكى «لومتر» من ذلك نظرية امتداد الكون، أو ليس عجيبا مذهلا أن يضع الوحى دائما معالمه المضيئة أمام الفكر العلمى حتى كأنها تصف له الطريق؟ وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمى؟

٨- ﴿ **وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن فى هاتين الآيتين إشارتين واضحتين الى موضوع دوران الأرض فالآية الأولى تلفت النظر الى أن الانسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة، ولكنها فى واقع الأمر تسير

تبعا لسير الكرة الأرضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين إلى أن الآية فى حديث الآخرة ولكن نهايتها: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تدل على أنها فى عالمنا هذا.

والآية الثانية تشير إلى نفس المعنى وإن كانت الاشارة أبعد وذلك:

لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان إذن يكون قسم من الأرض نهاراً دائما وآخر ليلا دائما، فإذا ما فرضنا أن الشمس هى التى تدور حول الأرض فان فى هذه الحالة المنبع الضوئى هو المتحرك وإذن فالنهار هو السائر والليل تابع.

وعلى عكس ذلك فى حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئى ثابت نسبيا(١) – أى بالنسبة للأرض – وإن كان هو فى حد ذاته متحركا وفى حالة ثبات المنبع الضوئى يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذى ذكرته الآية إذ قالت: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ فالليل هو الذى يطلب النهار ولا يكون هذا إلا إذا كانت الأرض هى التى تدور حول نفسها، ولزيادة التوضيح نقول: إذ عمل الفعل – فى اللغة العربية – بمفعوليه فالأول منهما يكون فاعلا فى المعنى والثانى مفعولا، ولا يصح تقديم ما هو مفعول فى المعنى على ما هو فاعل بالمعنى فى حالة وجود اللبس وآية: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ عمل فعل بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلا ومفعولا. فلابد إذن أن الفاعل فى المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ دل على أن الليل هو الفاعل فى النهار فى المعنى وهو الفاعل فى قوله عز وجل: ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ يقول ابن مالك:

الأصل سبق فاعل معنى كمن ... من ألبسن من زاركم نسج اليمن

ويلزم الأصل لموجب عرى ... وترك ذاك الأصل حتما قد يرى

٩– والآيات القرآنية فى هذه الناحية كثيرة لمن أراد أن يتبع وكلها تشير الى شئ واحد: إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فانك إذ تجد فى كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا فى زمن متأخر تصبح أمام شئ خارق جدا جدا.

---

(١) يقول علماء الكون اليوم: إن للشمس ثلاث حركات. حركة عمودية باتجاه كوكب الجاثى مع الكواكب السيارة، وحركة حول نفسها، وحركة مع مجرتها.

فعندما يقول: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ: ٧] تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تقول بأن للجبال جذورا وتدية فى الأرض يعدل امتدادها ضعفى ارتفاع الجبل عن الأرض.

وعندما يقول:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١-٢] تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تعب العلم حتى وصل اليها وهى أن الاضطراب سابق البركان وأن باطن الأرض أثقل من قشرتها وان كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية.

وعندما يقول فى قراءة صحيحة:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً ﴾ [الفرقان: ٦١] عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة علمية غير متوقعة فالسراج فى اصطلاح القرآن الشمس وفى الماضى لم يكن تعرف إلا شمس واحدة واذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس.

وعندما يقول:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس: ٣٨] تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التى تبين أخيرا أنها تشارك مجرتها فى دورتها وتدور حول نفسها وهى مع هذا تسير فى اتجاه عمودى نحو كوكبة الجاثى ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها فى يوم من الأيام.

وعندما يقول:

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥] تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض إذ التكوير إنما يكون للشئ الدائرى كما تجد نفس المعنى فى قوله: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٠] فالأدحية والأدحوة: بيض النعام.

وعندما يقول:

﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] تجد نفسك أمام

الحقيقة العلمية التى تقول أنه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض فى حالة تشقق دائم وبالتالى فى حالة ميدان واضطراب شديدين.

وعندما يقول:

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

[الأنبياء: ٣٠]

تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن فى كلا تفسيرى الآية سواء فسرنا «رتقا» بأنهما كانتا شيئا واحدا وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فسرنا ﴿ رَتْقاً ﴾ بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التى تقول إن الأرض فى الأصل كانت كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شئ حى أو ماء، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير.

وهذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن القرآن أنزله خالق السموات والأرض العليم بهما ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

* * *

(٣)

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره ما أشار اليه القرآن بقوله:

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤١].

لقد تكلم القرآن عن الماضى وتكلم عن المستقبل وفى كلامه عن الماضى أو المستقبل تنزيه عن الخطأ وجل عن الباطل، وهو فى كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله.

وقد حاول ناس أن يطعنوا ببعض أخباره عن الماضى متصورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولا عند غير المؤمنين، وهم يدعون فى ذلك: النقد العلمى، والنزاهة التاريخية، ولكن العلم أثبت بالكشوف المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن.

« فمن أقطاب هؤلاء المحرفين من أنكر عادا وثمودا، وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف. فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا Oadita وثمود Thamudida مذكورتان فى تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان فهم يكتبونها « ادراميت » ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد ارم ذات العماد وعثر المنقب « موزيل التشيكى » صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة الى قبائل ثمود.

ومن أقطاب هؤلاء المحرفين من أنكر أبرهة، ونكبة جيشه، واهتمامه بتعطيل الكعبة، وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها، ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل ».

ويروى الرحالة « بروس » الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيل ».

إنه ما من شئ تحدث عنه القرآن فى الماضى إلا وكانت وقائع التاريخ القديم ونصوصه وحفرياته تؤيده من أدق التفصيلات ـ حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم فى صلب المسيح، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديما لا تؤمن بصلب المسيح ـ الى أكبر الوقائع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذى تذكره مصادر التاريخ القديم كلها، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية، أو البابلية، ويأتى التنقيب الحديث ليرى طميه ويحدد مكانه.

وعندما نعلم أن قسما من أخبار القرآن كان معروفا عند العرب، وقسما كان مجهولا لا يعرف شئ عنه، كقصة الطوفان. إذ يقول القرآن عنها: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا** ﴾ [هود: ٤٩] ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحى كما هو ثابت تاريخيا يأخذ عنه محمد ﷺ. يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره غير الله عز وجل.

﴿ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ [فصلت : ٤٢].

وأما حديثه عن المستقبل، وتصديق المستقبل حديثه. فذلك أدل فى بابه على أنه من عند الله. فما من كلمة قالها القرآن قديما نقضتها الوقائع على مر الأيام، حتى هذا الزمان والى آخر الزمان. سواء فى ذلك ما فى القرآن من تشريع أو أخبار أو بيان، ولتشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه.

وقد رأينا مثلا فى الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقا ـ ولا يمكن ألا يكون ـ لكل ما اكتشفه الإنسان من حقائق. ونريد هنا أن نتحدث عن شئ مما أخبر به عن المستقبل ووقع، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن فى هذه الخاصية دليلا لا يدحض على أن القرآن من عند الله:

إن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضى، أما المستقبل فهو غيب مستور مجهول، والانسان يستطيع أن يوازن ويقايس ليصل الى احتمال فى أمر هذا المستقبل، قد يقع وقد لا يقع وهو أبدا لا يستطيع أن يجزم، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتى حديثا جازما، ثم يقع هذا المخبر عنه تماما وقوعا مطابقا مرات دون أن يخرم ذلك مرة، إننا فى هذا الحالة لابد واجدون غير علم الانسان وإحاطته. إنه لابد أن يكون ذلك أثرا من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضى إنه علم الله عز وجل.

وهذه أمثلة مما فى القرآن:

١ - ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]:

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى الى جنبه قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة» قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال: من هذا؟ فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله فى نومه.

روى الترمذى والحاكم عن عائشة وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال:

كان النبى ﷺ يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: « يا أيها الناس.. انصرفوا فقد عصمنى الله ».

من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يحرس وكان يحب أن يحتاط فى أمر حماية نفسه وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التى تجزم أن الرسول ﷺ معصوم من الناس.

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد اليه، وهذا إخبار عن غيب إذ من الذى يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلا مع توفر دواعى التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد ﷺ عاداه الناس جميعا وصار للعداء مظهر الدم فى أمة تأصل فيها معنى الثأر. إن مثل هذا لا يجزم به إنسان متماسك عقليا، إن لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط.

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله، ومحاولات كثيرة أعدها المشركون كلها لم تبلغ شيئا فى الوقت الذى لم يكن أى مانع بشرى يحول دون تنفيذ الجريمة إلا عناية الله. وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول ﷺ كثيرة وكانت خطرة وكان الرسول ﷺ هو هدف العدو فيها، وما حدث أبدا أن ولى الرسول ﷺ العدو ظهره وكان أقرب أصحابه الى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمى الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم، ومع هذا وذاك فالآية تجزم أن هذا الانسان معصوم لن يقتل وقد كان.

لقد انتقل الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى بيد القدرة الالهية لا بتسليط انسان ـ ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله فى أشد ساعات الخطر تحقيقا لوعده:

ـ روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة وروى مسلم فى صحيحه عن جابر قال:

كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى ﷺ: أتخافنى ؟ قال: لا . قال: فمن يمنعك منى؟ قال: الله يمنعنى منك.. ضع السيف، فوضعه.

وروى الشيخان: فى غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق الرسول ﷺ يركض جهة العدو راكبا بغلته وعمه العباس آخذ بلجامها يكفها عن الاسراع، فأقبل المشركون إليه فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلا بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده.

إن نبوءة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل: لن تقتل. لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحيا من الله الذى يعلم الغيب وبيده الموت والحياة.

٢- ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦].

نزلت هذه الآية فى مكة كما روى البخارى عن عائشة: نزل على محمد بمكة وإنى لجارية ألعب: ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ** ﴾ والمسلمون وقتذاك مستضعفون فى مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال، ولو كان قتال فلم يكن متوقعا فى ميزان القوة أن يغلب المسلمون، ومع ذلك تنزل هذه الآية المنبئة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر. روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال:

لما نزلت ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ قال عمر: أى جمع يهزم؟ أى جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ. وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار، وللمشركين دار، واصطدم الجمعان، وكان رسول الله ﷺ عارف يومها أنه اليوم الموعود. روى البخارى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر: أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض. فأخذ أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ بيده وقال: حسبك يا رسول الله .. ألححت على ربك. فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ**

وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ وقد انتصر جمع الإيمان، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم، وآمن المؤمنون أن هذا إنما هو علم الله الذى لا يخطئ.

٣- ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ﴾ [الروم: ٢-٥].

كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة، يقولون لهم: ان الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية..

ولقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين إخبارا بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون. ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدا يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها، وهزمت فى بلادها، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك ـ الى أمد طويل ـ قائمة فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها فيه النصر، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا علي تكذيبه، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾.

إشارة إلى أن اليوم الذى يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس. سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين، وإذا كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعدا عن الناس أشد الاستبعاد، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾]الروم: ٦] ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين، وكان يوما نصرها هو اليوم الذى وقع فيه نصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر الكبرى. كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ورواه الطبرى عن ابن عباس وغيره. فكانت نبوءة ثالثة فى الآية تحققت.

٤- ﴿ ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢١-٢٦]

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [سورة المسد]

النص الأول :

فى الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .

والنص الثانى فى عم النبى ﷺ وزوجة عمه . والنصان يخبران فى حياة الثلاثة أنهم سيدخلون النار وهذا يعنى أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا فى الاسلام وواضح فى ذلك الإخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضلالا وكفرا وعتوا وكيدا بالمسلمين، ثم كان بعد من المسلمين كأبى سفيان وخالد وعمرو ابن العاص . . وظواهر الأمر لم تكن تدل على أن الوليد مثلا أبعد من أبى سفيان عن الإسلام . فللوليد تلك الشهادة العظيمة التى رأيناها سابقا فى القرآن كما أن الآخر عم النبى ﷺ ولكنها النبوءة التى لا تتخلف إذ تقول فيكون ما قالت ولم يحدث أن القرآن ذكر انسانا بأنه من أهل النار ثم أسلم .

٥- ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : ٢٧] .

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش اذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عزلا من كل سلاح إلا السيوف فى القرب .

فهل كان للمسلمين أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود، وقطع الأرحام، وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غدا؟

على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم الى فخ؟ وآية ذلك . اشتراط تجردهم من السلاح الا السيف فى القراب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى انهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول والأمن وقضاء الشعيرة. فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان. وكان من بعد ذلك الفتح القريب.

٦- كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم، ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]

﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ [غافر: ٥١].

كان هذا يوم كانوا فى مكة حيث كانوا ينامون على خوف، ويستيقظون على خوف. ثم هاجروا الى المدينة فكيف كان الحال؟

روى الحاكم وصححه: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أترون أنا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** ﴾ [النور: ٥٥].

وروى ابن أبى حاتم عن البراء قال: نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد. فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعاديها، وإذا بها بسنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها، وتضرب أكبر دولتين فى العالم: دولة الفرس ودولة الروم فتنتصر عليهما، ثم تنساح فى الأرض فلا يستعصى علي سيوف أهلها شعب ولا بلد.

٧- ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا**

نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١]. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

إن الكلام عن الشئ فرع تصوره هذا بالنسبة للانسان. أما بالنسبة للذات الالهية، فان الكلام عن شئ أثر العلم به. وأنت ترى فى هاتين الآيتين خطابا للانسان أنه لن يعجز الله، ولكن يلاحظ فى الآية الأولى أنه خاطب الإنسان على الأرض فقط، وفى الآية الثانية خاطبه على الأرض وفى السماء. فزيادة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ إذن فى الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة، هذه الزيادة فيها معنى النبوءة التى تبشر بامكانية صعود الانسان الى السماء وتخاطبه فى كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة الالهية غير خارج عما تريد هذه الذات.

يا إنسان لن تعجزنى على الأرض، وإذا صعدت إلى السماء فلن تعجزنى، ولم يصعد الإنسان إلى السماء إلا فى عصرنا هذا، فكأن الخطاب إذن لإنساننا الحالى وذلك من أسرار الإعجاز.

وفى كل حال يظهر لك كيف أن الزمان يظهر ما فى القرآن من حق، وكيف أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٨- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢].

الآية الأولى ذكرت أصنافا مما يركبه الإنسان وله فيه زينة، وبعد أن عد هذه الأصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية، ومن جو الآية نفهم أن هذا الشئ سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة بنفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير.

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبات وتقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

ترى ما هذا الذى هو من جنس الفلك ويركبه الإنسان؟

لقد كان يومها فى مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التى رأيناها حديثا تدخل لغويا فى كلمة: ﴿ **وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُون** ﴾.

وإذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للانسان، وقد كان ما بشر به القرآن، يبقى معنى لابد من الاشارة اليه وهو أننا نلاحظ تطور المركوبات يوما بعد يوم كل يوم يأتى بجديد لا يعلمه الانسان قبله وهذا الشئ نفسه نفهمه من آخر الآية الأولى ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾.

فالقرآن فى الحقيقة يخاطب الانسان أبدا فى كل زمان ومكان. فعندما أسمع الخطاب اليوم ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ أفهم أن فى غد شيئا جديدا، ويكون إذن ما نراه من تطور كل يوم فى عالم المركوبات داخل ضمنا فى الآية.

وأخيرا نقول: إن بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم أن الله سيخلق للإنسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديما يسير فى البر كما تسير السفن فى البحر.

٩- ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً** ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ** ﴾

[الأعراف: ١٦٧]

﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ﴾

[آل عمران: ١١٢]

هذه الآيات فى اليهود وإن واقع التاريخ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن، هو الذى يفسرها. فكان ما حدث تفسير القدرة الإلهية للعلم الإلهى، إذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان، كما أخبر الله ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً** ﴾ ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن الى هذا الزمان.

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود. وأنه اضطهاد دائم. وذلة دائمة، من ملاحقة الأسبان لهم، إلى مطاردة الكنيسة فى كل مكان، إلى ما وقع

لهم فى روسيا، وآخر أنباء هذا العذاب ما سامهم إياه النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعا. هذه صورة مما وقع لهم فى الغرب، والصورة الأخرى التى وقعت لهم فى الشرق والغرب أنهم أبداً محكومون من غيرهم ، وأنهم أبدا يعانون حياة الذلة، وفى هذا وذاك عذاب ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ** ﴾.

ثم حدث أن عطفت عليهم الشعوب والحكومات. أمريكا، وانجلترا وروسيا، وفرنسا.. والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجع بعد ما ذكرناه الى الآية الثالثة ترى كيف تمت النبوءة ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ﴾.

عذاب متواصل وذلة دائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس. فلما كان هذان الحبلان. صار لهم دولة، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم إلى يوم القيامة. لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وفى التوراة الحالية المحرفة هذا القول: «سأجمعك يا إسرائيل فى أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحا» وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهى هذه الردة عن الاسلام إن شاء الله.

١٠- والذى يريد أن يتتبع هذا النوع مما فى القرآن يجد الكثير. ففى آية ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ [البقرة: ٢٤] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ [فصلت: ٥٣] نبوءة تحققت. مظهرها ما كشف الانسان من علم وما يكشف، وفى آية ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً** ﴾ [النصر: ١-٢] نبوءة تحققت وفى آية ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ** ﴾ [القصص: ٨٥] نبوءة تحققت.

والشئ الذى نريد أن نخرج به هو أن القرآن إذا قال فذلك العلم الذى لا يخطئ لأنه علم الله المحيط.

غير أن فهمنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن فهما

خاطئا، ونعطيه للناس، بل نلزمهم به أو يلتزمون. وهذا خطر كبير. لذلك ينبغى أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير القرآن: وكل مفسر فهم القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا فهمه للقرآن تفسيرا للقرآن، وشتان بين الفهم الخاطئ للقرآن وحقيقة القرآن.

(٤)

شئ آخر يدلك على أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل، وأنه ما كان ليكون هكذا لولا أنه منزل من عند الله الذى أحاط علمه بكل شئ. هذا الوجه الذى نريد أن نتحدث عنه الآن هو الذى أشارت إليه الآيات القرآنية التالية:

﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة الا لسفر واحد من أسفارهم. هو سفر «أرمياء» كما يذكر «مونتيه» فى تاريخ الكتاب المقدس، وليس الإنجيل بأسعد حالا. فقد ألغى مجمع أساقفة «نيقية» كثيرا من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأناجيل. وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح، لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أى بعد عصر الحواريين الذين تنسب اليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فإن شكوكا كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية.

إن إنجيلا واحدا نطق به عيسى على أنه كلمة الله، فلم يكون الانجيل أربعة؟ ولم

كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص؟ ولقد لعن أرمياء فى سفره المذكور «أقلام النساخ الكاذبة».

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير الى ربانية مصدره، حيث إن هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك، حتى يتحدى فى بعض المواقف أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه: ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ٩٣].

– أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والانجيل، هذه الموجودة حاليا ليست هى بالضبط الكتب السماوية الأصلية بل داخلها تحريف وتبديل، ونسى قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمى العقلى النصرانى من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التى تتفق مع ما ألح القرآن عليه:

﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٨–٧٩]

﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿ **يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ [المائدة: ١٣].

* * *

– الموقف الثانى:

ذكر القرآن الكريم كثيرا مما كان فى التوراة والانجيل من معان ووحى، وعندما نستعرض هذه النصوص ونقرأ التوراة والإنجيل فاننا نجد هذه النصوص قد طابقت ما فى التوراة والإنجيل، مما يدل على إن قسما من التوراة والإنجيل لم يحرف، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن. إذ لا شك تاريخيا كما مر أن محمدا ليس له أى اطلاع على كتب دينية أو غير دينية.

وهذه الأمثلة:

١- يقول القرآن:

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

ويقول إنجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته».

ويقول إنجيل مرقس الباب الثانى عشر (٢٨) «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل الرب الهنا رب واحد وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هى الوصية الأولى».

ويقول إنجيل متى الباب التاسع عشر (١٦) «وإذا واحد تقدم وقال: أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعونى صالحا؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله»

وهذه نصوص صريحة فى الأناجيل الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وأنه رسول ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف.

٢- **يقول القرآن**: على لسان عيسى ﴿ **وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ** ﴾ [آل عمران: ٥٠] ويقول: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ** ﴾ [المائدة: ٤٦] ويقول مخاطبا لنا: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [الشورى: ١٣].

ويذكر انجيل متى إصحاح (٥) على لسان عيسى : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء الى أن تزول السموات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات فإنى أقول لكم : إن لم يزد بركم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السموات » .

٣- يقول القرآن :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾

[المائدة : ٤٥] .

وفى الإصحاح (٢١) من سفر الخروج :

وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم (من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض » .

٤- يقول القرآن :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة ق :٣٨] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وتقول التوراة فى الاصحاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق : « وقال الله نعمل الانسان فخلق الانسان ذكرا وأنثى وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا وكان . . يوما سادسا » .

وفى الاصحاح الثانى من سفر التكوين :

- « فأكملت السموات والأرض وكل جندها » .

- « هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات » .

– « وجعل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » .

– « فأوقع الرب الاله ثباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إليه » .

٥- يقول القرآن :

﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الكهف : ٥١] ويقول : ﴿ **مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ** ﴾ [الرحمن : ١٩-٢٠] ويقول : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً *وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَباً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً** ﴾ [النبأ : ٦-١٦] ويقول : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] .

وفى سفر أيوب إصحاح (٣٨) أجاب الرب أيوب وقال : « شد الآن حقويك كرجل – أى قف باستعداد – فإنى أسألك فتعلمنى : أين كنت حين أسست الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أى شئ قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله . من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار أتخرج المنازل من أوقاتها وتهدى الشمس مع بناته من يهيئ للغراب صيده إذا نعب فراخه إلى الله فأجاب أيوب الرب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجاوبك وضعت يدى على فمى » .

٦- يقول القرآن :

﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام : ١٠٢-١٠٣] ويقول : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى : ١١] ويقول : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [المائدة : ١٢٠] وتقول التوراة سفر الخروج :

«الرب يملك الى الدهر والأبد» الاصحاح (١٥)، وفى الاصحاح (٣٧) «عند الله جلال مرهب التقدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر» وفى الاصحاح (٣٣) «هو ذا الله تعالى بقدرته من مثله» «هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص».

٧- يقول القرآن:

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

[البقرة: ٥١]

ويقول: **﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾** [الأعراف: ١٥٠] ويقول: **﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً ﴾** [طه: ٩٧].

وفى الاصحاح (٣٢) من سفر الخروج «فانصرف موسى ونزل من الجبل، وكان عندما اقترب الى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه..

ثم أخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء».

٨ - يقول القرآن: متحدثا عن موسى:

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفى الإصحاح (٣٣) من سفر الخروج «فقال موسى: أرنى مجدك (١٩) ..... قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» (٢١).

٩ - يقول القرآن:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة: ٨٣].

وفى الإصحاح العشرين من سفر الخروج: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك ألهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا

ولا صورة مما فى السماء.. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب الهك غيور وأصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى».

١٠- يقول القرآن فى سورة يوسف عن يوسف:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [٤] ويقول سفر التكوين الفصل (٣٧): «قال رأيت حلما أيضا كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة له» ويقول القرآن على لسان إخوة يوسف:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [٩-١٠].

وفى سفر التكوين:

«والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول: إن وحشا ضاريا افترسه ونرى ما يكون من أحلامه، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه فى هذا البئر التى فى البرية».

ويقول القرآن:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ .. ﴾[١٧]

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [١٨].

وفى سفر التكوين:

«فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعز وغمسوا القميص فى الدم. وحش ضار أكله افترس يوسف افتراسا».

ويقول القرآن:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [٢٣].

وفى سفر التكوين:

«وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعنى فأبى وقال لامرأة مولاه هوذا مولاى لا يعرف معى شيئا مما فى البيت وجميع ما هوله جعله فى يدى.. فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن فى البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعنى».

ويقول القرآن:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ [٤٣-٤٤].

ويقول سفر التكوين:

«إن فرعون رأى حلما كأنه واقف على شاطئ النهر فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهى حسان المنظر وسمان الأبدان فرتعت فى المرج وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهى قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على الشاطئ النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان..

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة وهى سمان جياد وكأن سبع سنابل دقاقا قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون».

* * *

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التى ختمت بها سورة يوسف **﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾** [١١١] ونعرف كذلك وحدة الوحى ووجوده إذ رأينا أن سيدنا محمدا ﷺ لم يتلق أى تعليم سابق مما يوهم أن مثل

هذا التلاقى وليد دراسة، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعانى أبدا، ولم تكن تعرفها، بدليل الآية التى ذكرت فى سورة يوسف عقب القصة ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾[١٠٢].

فعندما يتم التلاقى بين معنى ذكره الانجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود فى القرآن، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا فذلك دليل لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء: ١٦٦].

* * *

- الموقف الثالث:

رأينا فيما مضى أن التوراة والانجيل والزبور فى الأصل من عند الله. ورأينا كذلك أنها قد داخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياع، والشئ العادى إذن بعد هذا. أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا، ومفاهيم خاطئة، وتصورات فاسدة، واختلافات كثيرة، ويأتى القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها، وهذه الأخطاء كلها وهذه الانحرافات كلها. فيبين ويوضح ويوبخ ويعاقب ويدعو وينذر ، ويعلل ويوضح، ويطالب ويأمر، وينهى بجزم وحزم وتعليم وإرشاد وأستاذية مطلقة، وسيادة بينة. فرد اليهودى والنصارى معا الى القصد والى الطريق المستقيم ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [النمل:٧٦] ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾]المائدة: ١٩].

وهذه أمثلة:

١- أعطى قسم من الكتابيين ا لعصمة لبعض البشر ممن ليسوا بأنبياء، فأطاعوهم وعطلوا نصوص الكتب السماوية، وكما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا. فقال لهم: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾

[التوبة: ٣١]

وقـال:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧]

٢- ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه. فقالوا عنه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [سورة ق: ٣٨].

٣- ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفا منكرا فقال عنهم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

٤- وأله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢]

٥- وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم:

﴿ قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

[المائدة: ٧٣]

ووضع عيسى وأمه فى المحل الصحيح ﴿ مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

٦- وتصور بعض الكتابيين أن إثمهم يحمله غيرهم وأن الانسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بالمسيح فقال: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر: ١٨].

والأمثلة كثيرة جدا على هذا فى القرآن ، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الانسان لا يشك بتاتا إذا طالع هذه الكتب كلها، أن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها، وأقام الناس على الحق الذى لا شبهة فيه، ويخرج أخيرا بهذه النتيجة:

إن الحديث عن الكتب السماوية وأهلها فى القرآن يدل على محيط كامل بهذه الكتب وأهلها، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الخلاف التى لم يكن منها شئ معروف فى جزيرة العرب، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الانحراف، وكذلك بالتناقض بين النصوص، كاثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية. هذا مع أمية الرسول ﷺ ووجود هذه الكتب فى غير اللغة العربية، وعدم انتشارها، وجهل البيئة العربية بمضامينها، وثبوت أن الرسول ﷺ لم يتلق تعليما من أحد.

ان هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحى من عند الله.

* * *

(٥)

وآخر ما نريد ذكره فى فصل المعجزة القرآنية. هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن، وأسلوب القرآن، وفى ذلك برهان أى برهان على كون هذا القرآن من عند الله.

إن المبتدئ فى طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله ريادة فيه، يختلف وضعه عن المجرب الخبير ، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبرتهم، كما يقال هذا فى الحل والترحال، يقال مثله عن عالم الأدب، لم كان حسان بن ثابت فى الجاهلية أقوى شاعرية منه فى الاسلام؟

لأن المعانى التى كان يتحدث عنها فى الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله. قالوا فيها كثيرا، وفتحوا فيها آفاقا واسعة استفاد منها، فقال وأجاد.

أما فى الاسلام فالوضع يختلف. فقد أتى الاسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليا تختلف عما فى الحياة الجاهلية، وأقام نظاما للحياة على أسس معاكسة تماما لما

كان عليه الناس، والمعركة بين جديد وقديم، فكان إذن وهو يتحدث عن هذا الشئ الجديد كله رائدا غير مسبوق، فشئ عادى إذن أن يكون شعره الاسلامى أضعف من شعره الجاهلى. إن زهير بن أبى سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حجر الشعرية، ولو لا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعانى هؤلاء واحدة.

هذه قضية ينبغى أن تكون على ذكر منا، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن.

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريق التعبير فى قضايا الخيال والتصور أو العاطفة، وفى الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب فيكون كذب وشطط وإسفاف ومجانة..

وهذه قضية ثانية ينبغى أن تكون على ذكر منا كذلك.

والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته، ومن محيطه مما يشاهده أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويحلق ويدقق، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه:

من زهير إذ يقول:

ترى العين والآرام فى عرصاتها واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إلى على بن الجهم إذ يقول للخليفة:

أنت كالكلب فى الحفاظ على الود وكالتيس فى قراع الخطوب

وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغى أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن.

وأى شاعر تكلم، وأى أديب قال أو كتب، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته، لغير أو بدل أو قدم أو أخر، وأى قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون. فيرون كلمة أجود من كلمة، وحرفا أجمل من حرف، وجرسا ألطف من جرس، أو أكثر مناسبة، وقد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها، أو جرسا

غير منسجم مع معنى، الى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيرا أو أجود معنى.

وفيما رأيناه من نقد الخنساء لحسان فى أوائل هذا البحث مثال كاف، فاذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول: إن إنسان يعقل لا يستطيع أبدا أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ أو سواه من البشر، بل لابد أن يكون مصدر هذا القرآن الذات العليا ذات الله عز وجل:

١- فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية. فما فيه من صور وما فيه من أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر. خذ مثالين على ذلك:

(أ) ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٣٩-٤٠] إن هذا النص وخاصة المثل الثانى منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليد العصر الذى وجد فيه ولتعرف لماذا؟ اقرأ هذا التعليق: «فى هذه الآية اشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعبا هى أمواج غير منظورة تتحرك فى خطوط سيرها الغامضة بعيدا فى أعماق البحار وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالى كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت، والذى عرف الآن بأنه أمواج داخلية. وفى عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحى البحار الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التى ترتفع وتهبط بعيدا أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع فى المحيط قد أصبح أمراً معروفا جيداً فهى تقذف بالغواصات فى المياه العميقة كما تعمل شبقاتها السطحية على قذف السفن. ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج، وبتيارات أخرى قوية فى بحر عميق، فالآية القرآنية تقول: ﴿ **فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ** ﴾ إذن الكلام عن بحر عميق، ﴿ **يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ** ﴾ إذن أمواج

داخلية وأمواج سطحية ﴿ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة إنما تنطبق على الانسان إذا كان تحت الأعماق أى تحت الأمواج الداخلية. مثل هذا التصور معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا.

(ب) ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف: ١٠٩] مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر فى التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التى تعبر عن هذا العلم الذى لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل. أن تنقلب الأشجار كلها أقلاما والبحار كلها حبرا وفوق البحر أبحر وتبدأ الأقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتناهى، إن الأمة التى كان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله، ليس بالإمكان أن يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله.

٢- والقرآن الكريم نزل منجما خلال ثلاث وعشرين عاما وكتاب تم جمعه وكماله خلال هذه الفترات الطويلة لابد - إلا إذا كانت المسألة غير عادية - أن يكون هناك اختلاف فى أسلوبه قوة وضعفا ما بين بدايته الى نهايته ولابد أن يكون هناك اختلاف فى المضامين. وهذا شئ يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام، وصناعة الأفكار، وصناعة الاصلاح وصناعة الأمم. التجربة تغير الرأى والتجربة تقوى الأسلوب وليست آراء الإنسان بعد عشرين عاما من العمل الاصلاحى هى نفسها قبل العشرين، ولكنك فى القرآن تجد ظاهرة الوحدة فى الأسلوب سواء فى ذلك ما نزل أولا أو ما نزل أخيرا وسواء فى ذلك النص التشريعى أو النص الوعظى أو النص الوصفى أو النص القصصى. وظاهرة الوحدة فى المعانى فلا تجد معنى متأخرا ينقض معنى متقدما، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله ﷺ فيأخذ محله فى القرآن، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبديل، ويبقى هذا الأسلوب متميزا متفردا ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفا عن أسلوب محمد ﷺ نفسه فى الكلام مع بقاء معانى القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن

الانسان. فالمسألة بإنصاف ليست بشرية الصنع وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعاني.

من النصوص التشريعية في القرآن:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

[النساء: ١١].

ومن النصوص القصصية:

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

ومن النصوص الوعظية:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾

[الانفطار: ٦-١٤]

ومن النصوص الوصفية:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [النبأ: ٦-١٦].

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقا وبعضها نزل لاحقا، وكل يتحدث عن معنى. ولكن هل تجد اختلافا فى الأسلوب؟

إن إنسانا ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة الا أنها خارقة للعادة.

– أول آية نزلت فى الخمر قوله تعالى:

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾

[النحل: ٦٧]

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن، فكانت أول آية غمزت من الخمر. ثم تأتى الآية الأخرى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم تأتى الآية الأخرى:

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء: ٤٣].

ثم تنزل الآية الأخيرة:

﴿ إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠] فهل تجد تناقضا بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية. وعلى هذا فقس. فالقرآن تكامل خلال ثلاث وعشرين عاما. ما نقض معنى متاخر معنى متقدم بل أكمله وأوضحه وتممه. وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ [النساء: ٨٢].

٣– والقرآن الكريم طرق معانى ما طرقها أحد من قبل أمة العرب. فالمفروض لو كان الأمر بشريا، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة، وقلب كلمات، وتلعثم وتكلف الى غير ذلك، إلا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنار والملائكة والانسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والايمان، وتحدث عن الذات الآلهية، وناقش المعارضين، وأفحم المجادلين، وهو فى ذلك كله فى أعلى طبقات البلاغة، وفى أعظمها وكل من أتى بعد وتحدث عن أى معنى طرقه القرآن كان فيما قال أقل إلى درجة الثلاثين اذا قيس ما قيل الى لغة القرآن. لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد فى اللغة

العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها، وما تعطيه من معنى، ومناسبتها لما قبلها وبعدها. هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شحطة فكر، ولا كذبة خاطر، ولا لفتة غير واقعية. بل الحق الذى لا يناقش فيه واحد.

ونرى ذلك بشكل مضطرد من أول القرآن لآخره. كتاب ضخم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه، وزيادة على ذلك فان الكلمة القرآنية، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وإن لم تعرفه، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم، فجرس الحرف، ومحل الكلمة فى الآية، ومحل الآية فى السورة، كل ذلك عجيب، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الإنسان. فانه سهل لدرجة أنه يفهمه كل إنسان، ولكن كل إنسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية. وكلما ارتقى أكثر كان فى القرآن أكثر، وكلما أتى جيل وجد فى القرآن جديدا تفهمه الأجيال كلها. ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠]

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصادية للانسان، ويكتب فى ذلك كتابا ضخما وفى القرآن مزيد لمستزيد.

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا فى القرن العشرين، فيؤلف فى ذلك كتابا ضخما، وفى القرآن مزيد لمستزيد.

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الانسان فى الفلك وفى القرآن مزيد...

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن القرآن كان فى ذلك دمارها.

ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا إلا تلاميذ صغارا ولا يحيطون بأسراره علما.

ويقرؤه الرجل العادى فيفهمه فيتذكر ويبكى ويتعظ. أنه كتاب كل إنسان وإن كان بيانه أرقى من كل بيان، وكلمته أفصح من كل كلمة، حتى أنك لو فتشت فى كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية فتكون أجمل منها أو أحكم

أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فإنك لا تستطيع مهما بذلت من جهد. بل تنقطع أنت وشيطانك ويبقى القرآن هو القرآن. وزيادة على ذلك فإنك لا تجد الكلمة التى تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية. وهذه أمثلة توضح هذا الذى قدمناه هنا:

١- ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قارن هذا التعبير بأى كلمة قالتها العرب فى معناها أو يمكن أن تقولها فانك ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآنى وآى تعبير أخر. فمثلا قال العرب فى معنى الآية ما يلى: «قتل البعض إحياء للجميع» وقالوا: «أكثروا القتل ليقتل القتل» وقالوا: «القتل أنفى للقتل» ولعل أخرها أجودها فلنقارنه فى الآية لنجد أن التعبير القرآنى أفصح وأبلغ وأحكم فى ستة أوجه وبعضهم أوصلها إلى أكثر من عشرة:

(أ) أن التعبير القرآنى أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتى «القصاص حياة» أو «القتل أنفى للقتل».

(ب) أن قولهم: «القتل أنفى للقتل» فيه التباس إذ ظاهره أن القتل سبب لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن فإنه واضح فيه أن نوعا من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة.

(جـ) فى قولهم: «القتل أنفى للقتل» كررت كلمة القتل مرتين أما التعبير القرآنى فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة.

(د) فى قولهم: «القتل أنفى للقتل» لم يشمل إلا نوعا مما ينبغى القصاص فيه. أما التعبير القرآنى فشمل القتل وغير القتل، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة.

(هـ) أن القصد من القصاص حفظ الحياة الانسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود، إذ أوضح المقصود مباشرة من تعبيرهم الآخر إذ ذكر المقصود تبعا.

(و) وأخيرا فإن تعبيرهم قاصر وموهم وخاطئ، إذ قد يكون القتل سببا لكثرة القتل كالقتل ظلما، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافيا للقتل على خلاف التعبير

القرآنى. فإنه صحيح شامل غير موهم، صادق ظاهرا وباطنا. كيف قبلته أعطاك معنى صحيحا.

وفى تعريف كلمة القصاص وتنكير كلمة الحياة فى التعبير القرآنى، معانى عظيمة كبيرة أما هنا فليس فى تعريف ولا إخبار أى ميزة.

٢- ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

هذا مقطع أمرت به الأمة الاسلامية بالاستعداد، وكان هذا الأمر لها فى كل زمان ومكان. وشمل كل ما يلزم من أمر الاعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص:

من: فى اللغة العربية تأتى للجنس أحيانا وهذا معناها هنا، والقوة فسرها الرسول ﷺ بالرمى فلما قال الله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطيعون إعداده مما يرمى به، أى من جنس ما يرمى به، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية، وكل ما يمكن أن يخترعه الانسان من أدوات الرمى، ولما قال ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ ﴾ أى وجنس رباط الخيل، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أى شمل التعبير كل الآليات.

أرأيت الإعجاز الواضح اذ يسع النص القرآنى الزمان كله، والمكان كله، ولو أنك حاولت أن تغير كلمة أو حرفا من هذا التعبير لبدا القصور، فانك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصرا على جزء مما ينبغى إعداده.

٣- ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

هذا التعبير القصير الذى عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل. وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معان؟

(أ) يشترط فى اللباس أن يكون خاصا بصاحبه، وملكا له وحده، وكذلك المرأة ينبغى أن تكون كلها لزوجها لا لغيره. لا خدها. ولا عينها. ولا جسمها ولا...

(ب) ويشترط فى اللباس أن يكون ساترا لعورة الرجل، وكذلك لعورة المرأة، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس، زوجتى ينبغى أن تكون ساترة لعيوبى لا تفضحنى أما اذا كانت اداة فضيحة فهذا شئ لا يحتمل.

(جـ) ويشترط فى اللباس أن يكون طاهرا وكذلك المرأة أو الرجل.

(د) ويشترط فى اللباس أن يكون مناسبا لمكانة الانسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة.

فهل تجد فى اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطى هذه المعانى كلها.

٤- ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

الحرث هى الأرض التى تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمر فالرجل مهمته إلقاء البذار والمرأة مهمتها حضانة هذه البذار، الأرض يعتنى بها حتى تقطف الثمرة، وتختار صالحة للزراعة، ولا يلقى الانسان بذاره فى الأرض ويتركها، ولا يبذر فى غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحدا.

هل تجد كلمة فى اللغة العربية تحل محل كلمة حرث، لو قلت: «أرض» لما أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معانى وأجود وأصدق منها فى محلها.

٥- ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً ﴾ [القصص: ٣٨].

الطين المشوى يسمى آجرا أو قرميدا بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين فى محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة، ثم التعبير القرآنى يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود فى ذلك لفتة تدلنا على حماقة فرعون وبطره إذ لم يقدر الزمان الكافى لعمل يحتاج الى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى؟

٦- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الأذن كما هى موجودة فى هذه الصياغة؟ حتما لا..

٧- ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق: ١٥].

لو سألك سائل ماذا تعنى كلمة « سفع » فى اللغة العربية فإنك لا تعرف إلا إذا رجعت إلى قاموس ولكنك اذا رجعت إلى الآية وتلوتها فان قلبك يكاد يحس بمعناها وإن لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة فى هذا القرآن.

وبعد .. فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه والاختيار العظيم فيه إلا من عند الله العظيم العليم.

* * *

والذى ذكرناه فى هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة فى الآيات:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ من مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠] ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيه اخْتلافاً كَثيراً ﴾ [النساء: ٨٢] ﴿ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨] ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية، ولم نذكر إلا الطرف الأقل عنها. وإلا ففى القرآن مناحى لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كل شئ ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾]النحل: ٨٩].

وككون القرآن يهدى دائما وفى كل شئ لأقوم الطرق.

﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الاسراء: ٩].

وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه، وتجد مصداقه فيه، إلا أن بعضا مما له علاقة بما ذكرناه سنراه فى الرسالة الثالثة التى تأتى بعد هذه الرسالة: « الإسلام ».

ولعل فيما كتب فى هذا الباب كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عند

الله، وأن محمدا رسول الله، وإذا بقى فى قلبك شك، فليجرب أن يؤلف مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فإن عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين ممن هم أبلغ، فإن عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق إلا الضلال والحماقة وعمى القلب وموت الضمير.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

وإلى الفقرة الثانية من هذا الباب:

* * *

الفقرة الثانية
معجزات أخرى

إن قدرة الإنسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الانسان وإلا لا. فالإنسان مثلا يستطيع إذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق. ويستطيع الإنسان أن يتحكم بألكترونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهبا إذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة. ولكن الإنسان لا يستطيع ان يوجد ذهبا من لا شئ، والبخار الموجود فى الجو ينعقد مطرا إذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها، ويستطيع الانسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط بالجو فينزل مطرا اصطناعيا كما يقولون. ولكن لا يستطيع الإنسان بمجرد الكلام أن ينزل مطرا.

إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه، فإن قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون. ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات.

بعد هذا نقول: إن مما يعرف به الانسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله. فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة، فيعرف الناس بذلك ان هذا الإنسان رسول الله. بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله. وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك.

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول الله ﷺ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى إقامة الحجة.

* * *

ولم يوجد رسول أبدا فى تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتا تاريخيا يتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فان معايير النقد التى وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ما وصل إليها العالم قط ولا يرقى الى نتائجها شك.

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيا يرى بوضوح لا مزيد عليه،آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع. مما لا يبقى ريبا لمرتاب، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله.

وهذه نماذج من هذه الواقعات التى لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله وبها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور هى القرآن، الذى رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله فى الفقرة السابقة ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وإنما أردنا ضرب الأمثلة فقط، وإلا فمعجزات الرسول عليه السلام كثيرة جدا.

* * *

(١)

أخرج مسلم والبيهقى وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: قال «سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله ﷺ: يا جابر.. ناد بوضوء. فقلت: ألا وضوء؟ ألا وضوء؟ قلت: يا رسول الله.. ما وجدت فى الركب من قطرة. وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فقال لى: انطلق إلى فلان الأنصارى فانظر فى أشجابه من شئ فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة فى عزلاء شجب يابسة مما لو أنى أفرغه لشربه واحد، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته قال:

اذهب فأتنى به. فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشئ لا أدرى ما هو ويغمزه بيده ثم أعطانيه فقال:

«يا جابر.. ناد بجفنة الركب».

فقلت: يا جفنة الركب.. فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه، فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا فبسطها فى الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها فى قعر الجفنة وقال: خذ يا جابر فصب على وقل بسم الله. فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلأت فقال: يا جابر.. ناد من كانت له حاجة بماء. فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى».

وأخرج الشيخان من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس رضى الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده فى ذلك الاناء وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم».

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضى الله عنه أن النبى ﷺ دعا بماء فأتى بقدح رحراح فيه شئ من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه فجعل القوم يتوضئون فحرزت من توضأ منه ما بين السبعين الى الثمانين.

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه «أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه فتوضأ أصحابه به جميعا. قلت لأنس: كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاث مائة».

وأخرج أحمد والبيهقى والبزار والطبرانى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس فى العسكر ماء فقال رجل: يا رسول الله.. ليس فى العسكر ماء. قال: هل عندكم شئ؟ قال: نعم. فأتى بإناء فيه شئ من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه فى فم الاناء وفتح أصابعه قال: فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه فأمر بلالا ينادى فى الناس: الوضوء المبارك».

وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «إنكم تعدون الآيات عذابا وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله ﷺ قد كنا مع النبى ﷺ ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتى النبى ﷺ باناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبى ﷺ: حى على الطهور المبارك والبركة من الله، حتى توضأنا كلنا».

وأخرج البخارى عن مسور بن مخرمة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى لرسول الله ﷺ العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من الصحابة ».

وأخرج البخارى عن البراء رضى الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا.

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: «قدمنا مع رسول الله ﷺ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة ما ترويها فقعد رسول الله ﷺ على جباها – يعنى الركبة – فإما دعا وإما بزق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا ».

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه « أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك فقال: إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشئ من ماء فغرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شئ ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا ».

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: كنا فى سفر مع رسول الله ﷺ فشكا إليه الناس العطش ودعا عليا ورجلا آخر فقال: اذهبا فابغيانى الماء فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين – أو سطيحين – من ماء على بعيرها فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدى بالماء أمس هذه الساعة – أى يبعد مسيرة يوم كامل – فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض فى الماء وأعاده فى أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى – أى مصب الماء من القربة – ونودى فى الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهى قائمة تنظر ما يفعل

بمائها وأيم الله لقد أقلعوا عنهما وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءا منها حين ابتدأوا فيها فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لها فجمعوا من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما كثيرا فقال رسول الله ﷺ : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئا ولكن الله عز وجل هو سقانا. قال: فأتت أهلها وقد احتبست عنهم فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب.. لقينى رجلان وذهبا بى إلى هذا الذى يقال له: الصابئ، ففعل بمائى كذا وكذا. الذى قد كان فوالله لأنه أسحر من بين هذه وهذه - وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعنى السماء والأرض - أو أنه لرسول الله حقا.

قال: فكان المسلمون بعد يغيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذى هى فيه فقالت يوما لقومها: ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم فى الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا فى الإسلام».

وأخرج مسلم عن أبى قتادة أن النبى ﷺ كان فى سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس فى ظهره فدعا بميضأة[1] كانت معى فيها شئ من ماء فتوضأ منها ثم قال: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ. فسار حتى امتد النهار فقال الناس: هلكنا وعطشنا. فقال: لا هلك عليكم.

ثم قال: انطلقوا إلى عمرى. يعنى القدح الصغير فدعا بالميضأة فجعل النبى ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبى ﷺ: أحسنوا الملء كلكم سيروى ... حتى ما بقى أحد.

* * *

(٢)

أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه النبى ﷺ فمسحه فسكن.

وأخرج أحمد وابن سعد والدارمى وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ

---

(١) الميضأة: إناء يوضع فيه الماء.

المنبر وتحول اليه حن الجذع فأتاه فاحتضنه فسكن فقال ﷺ : «لو لم أحتضنه لحن الى يوم القيامة».

وأخرج الدارمى والترمذى وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن أنس رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقوم إلى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل إليه رسول الله ﷺ فالتزمه فسكت فقال: والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزنا على رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن سعد وابن راهويه فى مسنده والبيهقى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يقوم الى خشبة فلما اتخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل رسول الله ﷺ فأتاها فوضع يده عليها فسكنت».

وأخرج الدارمى وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقى عن أُبى بن كعب رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل ﷺ فمسحه بيده حتى سكن».

وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ خشبة يستند إليها إذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها ﷺ فاحتضنها فسكنت.

وأخرج ابن أبى شيبة والدارمى وأبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب الى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة الى ولدها فنزل اليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكن».

وأخرج البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: «كان جذع يقوم اليه النبى ﷺ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتا مثل أصوات العشار (النياق) حتى نزل النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت».

قال التاج السبكى: حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة الى نحو العشرين من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه، وقال القاضى عياض بالشفاء: إنه متواتر. وقال البيهقى: قصة حنينه من الأمور الظاهرة التى نقلها الخلف عن السلف.

(٣)

أخرج البخارى عن أنس – رضى الله عنه – قال: أصابت الناس سنة – جدب – على عهد رسول الله ﷺ فبينا رسول الله ﷺ على المنبر يوم الجمعة يخطب أتاه أعرابى فقال: يا رسول الله.. هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى فى السماء قزعة، فوالذى نفسى بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابى فقال: يا رسول الله .. تهدم البناء. فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا.. فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادى قناة شهرا ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود» وأخرج مسلم مثله.

وأخرج البخارى عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال: ربما ذكرت قول الشاعر وأنا انظر إلى وجه رسول الله ﷺ على المنبر يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس – رضى الله عنه – أن ناسا من مضر أتوا النبى ﷺ فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال: اللهم اسقنا غيثا مغيثا، هنيئا مريئا، مريعا غدقا، طبقا نافعا غير ضار، عاجلا غير رائث. فأطبقت عليهم حتى مطروا سبعا.

* * *

(٤)

وأخرج الدارمى وأبو يعلى والطبرانى والبزار وابن حبان والبيهقى وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال:

كنا مع النبى ﷺ فى سفر فأقبل أعرابى فلما دنا قال له النبى ﷺ: أين تريد؟ قال: إلى أهلى. قال: هل لك فى خير؟ قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. قال: من شاهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ وهو بشاطئ الوادى فأقبلت تخد الأرض خدا حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه رسول الله ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابى الى قومه فقال: إن يتبعونى آتك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك.

وروى البخارى فى تاريخه والبيهقى والدارمى والترمذى بسند صحيح عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ – ﷺ – فقال: ان دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بى؟ قال: نعم. فدعاه فجعل ينقز – أى يثب – حتى أتاه، فقال: ارجع، فعاد الى مكانه فأسلم الأعرابى.

وفى رواية: فجعل ينزل من النخلة شيئا فشيئا حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى الى النبى ﷺ ثم قال له: ارجع. فعاد، فأسلم الأعرابى وقال: أشهد أنك رسول الله.

وروى الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى عن يعلى بن مرة الثقفى ــ رضى الله عنه ــ قال: «كنت مع النبى ﷺ فى مسير فذكر الحديث إلى أن قال: ثم سرنا حتى نزلنا منزلا فنام النبى ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته. وفى رواية: طافت به ثم رجعت إلى مكانها فلما استيقظ ﷺ ذكرت له ذلك فقال: هى شجرة استأذنت ربها فى أن تسلم على فأذن لها».

وأخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: آذنت – أى أعلمت – النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا: من يشهد لك – أى بأنك رسول الله – فقال ﷺ: هذه الشجرة، ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع».

وأخرج الإمام أحمد والبيهقى والطبرانى بسند صحيح عن يعلى ابن سبابة – رضى الله عنه – قال: كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأمر وديتين – أى نخلتين صغيرتين – فانضمتا.

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب – رضى الله عنه قال: سأل أعرابى النبى

ﷺ آية – أى علامة – تدل على أنه رسول الله فقال له: قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك. فدعاها فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله فقالت: السلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابى: مرها فلترجع الى منبتها فرجعت فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابى: ائذن لى أسجد لك. أى بعد أن آمن به ﷺ – كما صرح به فى رواية – فقال له ﷺ: لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. فقال الأعرابى: فأذن لى أقبل يديك ورجليك فأذن له».

قال الشيخ أحمد الدحلان فى السيرة النبوية: وأحاديث كلام الشجر له ﷺ كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، ويعلى بن مرة وغيرهم ورواها عنهم أضعافهم من التابعين.

وقال القاضى عياض فى «الشفاء» عنها: فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى: قال الشهاب الخفاجى: يعنى أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوى وصارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء.

* * *

(٥)

يقول الله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ﴾

[القمر: ١–٣]

روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «انشق القمر فى عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام: اشهدوا».

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما».

وروى الترمذى من حديث ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ**

القَمَرُ ﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ : أشهدوا».

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس».

وروى أبو نعيم فى «الدلائل» عن ابن عباس قال:

«اجتمع المشركون الى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصى بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبى ﷺ: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فلقتين، فسأل ربه فانشق».

ونقل الخطيب فى تفسيره عن حذيفة وقد خطب فى المدائن قوله: «ألا إن الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم».

وكفى ذكره فى القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره إذ الآيات واضحة فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضى عياض والسبكى وغيرهم.

ونقل صاحب كتاب «إظهار الحق» عن المقالة الحادية عشرة من تاريخ فرشنة أن أهل مليبار من اقليم الهند رأوه أيضا (أى حادث انشقاق القمر).

وذكر الحافظ المزى عن ابن تيمية ان بعض المسافرين ذكر أنه وجد فى بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه: بنى ليلة انشق القمر.

وقد أثار بعض مبشرى النصارى شبهات حول هذا الموضوع، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغى أن يذكر فى كل التآريخ العالمية لو كان صحيحا متناسين أن الخسوف مثلا قد يقع فى منطقة من العالم، ويبقى ساعات ولا يراه إلا أهلها. وقد ناقش مقالتهم صاحب الكتاب المذكور آنفا. وننقل جزءا من مناقشته للأمر قال:

١- إن انشقاق القمر كان فى الليل، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشى، والتردد فى الطرق. سيما فى موسم البرد، فإن الناس يكونون مستريحين فى

داخل البيوت وزواياها، مغلقين أبوابها، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلا من انتظره واعتنى به ، ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيرا وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به فى السحر.

٢- أن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذى هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه.

٣- أنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها فى وقتها، ويرونها كما أنهم يرون هلال رمضان، والعيدين والكسوف والخسوف فى أوقاتها غالبا لأجل كونها متوقعة الحصول، ولا يكون نظر كل واحد الى السماء فى كل جزء من أجزاء النهار أيضا فضلا عن الليل، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة، وكذلك من وقع نظره فى هذا الوقت الى السماء. كما جاء فى الاحاديث الصحيحة: أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبى كبشة، فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثو إلى أهل الأفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا. فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقا وذلك لأن العرب يسافرون فى الليل غالبا ويقيمون فى النهار. فقالوا: هذا سحر مستمر.. ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل.

٤- أنه قد يحول فى بعض الأمكنة وفى بعض الأوقات فى الديار التى ينزل فيها المطر كثيرا فانه يكون فى بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر فى النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة. وكذا لا يرى فى الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور فى بعض أمكنة أخرى. لا أثر للسحاب ولا للمطر، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج فى موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلا عن القمر.

٥- إن القمر لاختلاف مطالعه ليس فى حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر فى بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض..

* * *

أخرج البخارى عن البراء رضى الله عنه: أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبى ﷺ فقال: ابسط رجلك، فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها قط.

وأخرج الشيخان – البخارى ومسلم – عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه. فلما أصبح قال: أين على بن أبى طالب؟ قالوا: يشتكى عينيه قال: فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع».

وأخرج البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال:

«رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة بن الأكوع فقلت: ما هذه الضربة؟ قال: ضربة أصابتنى يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة فأتيت رسول الله ﷺ فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة».

وأخرج النسائى والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأخرجه البرهان الحلبى من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجى فى شرح «الشفاء»: فلم يبق فيه شبهة:

عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا أعمى قال:

يا رسول الله.. ادع الله لى أن يكشف عن بصرى. فقال له رسول الله ﷺ: انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى اللهم شفعه فى. فما قام القوم من مجالسهم إلا ورجع الرجل وقد أبصر وكان عثمان بن حنيف وبنوه يعلمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى».

وأخرج ابن عدى وأبو يعلى والبيهقى من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة عن جده قتادة بن النعمان: «أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: لا .. فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت».

وأخرج البيهقى من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله: «براحته» وقال: «اللهم اكسه جمالا» وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضى الله عنه أن عين قتادة ابن النعمان أصيبت فسالت على خده فردها رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه».

وأخرج البيهقى وأبو نعيم والطبرانى من طرق: أن عين قتادة أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردها ﷺ فكانت أحسن عينيه.

ولفظ رواية الطبرانى وأبى نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتقى السهام بوجهى دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهما ندرت سنه حدقتى فأخذتها بيدى وسعيت إلى رسول الله ﷺ فلما رآها فى كفى دمعت عيناه فقال: اللهم ق عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظرا.. فصارت كذلك.

والظاهر أن إحدى عينيه أصيبت فى بدر والأخرى فى أحد.

وأخرج الإمام أحمد والطبرانى عن الوازع قال: قدمت على رسول الله ﷺ والأشج فى ركب ومعنا رجل مصاب فقلت: يا رسول الله. إن معى خالا مصابا فادع الله له. قال: ائتنى به، فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض إبطيه ثم ضرب ظهره وقال: اخرج عدو الله. فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له، ومسح وجهه فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه.

وأخرج أبو يعلى والبيهقى بسند حسنه ابن حجر فى «المطالب العالية» عن أسامة بن زيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ الى الحجة التى حجها حتى اذا كنا ببطن الروحاء نظر الى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت: يا رسول الله.. هذا ابنى ما أفاق من يوم ولدته الى يومى هذا، فأخذه رسول الله ﷺ منها ووضعه بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل فى فيه وقال: اخرج يا عدو الله فإنى رسول الله. ثم ناولها إياه وقال: خذيه فلا بأس عليه، قال أسامة: فلما قضى رسول الله ﷺ حجه انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شويتها.

وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم من طريق سليمان ابن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت:

رأيت رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس – أى جنون – قالت: يا رسول الله.. ابنى هذا به بلاء لا يتكلم، فأمرها النبى ﷺ فجاءت بتور – إناء من حجارة فيه ماء – فأخذه ﷺ بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال: اسقيه واغسليه فيه. قالت: فتتبعتها فقلت: هبى لى من هذا الماء. قالت: خذى منه، فأخذت منه حفنة فسقيتها ابنى عبد الله فعاش فكان من يره ما يشاء الله أن يكون قالت: ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وأنه غلام لا غلام خير منه. ولفظة أبى نعيم: برأ وعقل عقلا ليس كعقول الناس.

وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن امرأة جاءت بابن لها فقالت: يا رسول الله.. إن بابنى هذا جنونا وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى.

وأخرج الحاكم عن أبى بن كعب قال:

كنت عند النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال: يا نبى الله إن لى أخا به وجع. قال: وما وجعه؟ قال: به لمم – أى جنون – قال: فائتنى به. فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبى ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين:

﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾.. وآية الكرسى وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ وآية من الأعراف: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ** ﴾ وآخر سورة المؤمنون: ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ وآية من سورة الجن ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا** ﴾ وعشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر و ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئا قط.

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد فى الزوائد بسند حسن.

* * *

ومعجزة أخرى متواترة النقل نقدم لها بما يلى :

لقد صعد الانسان الى ارتفاعات كبيرة فى هذا القرن، ولكن رغم هذا فإنه باق ضمن إطار معين محدود فى السرعة والزمان والمكان. فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم الى مجموعتنا الشمسية على ما يقال يبعد حوالى أربع سنين ضوئية، أى لو سار الانسان بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية فإنه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات.

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة، والمعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة، أما العادة فهى خاضعة للأسباب التى جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها.

فقد أسرى برسول الله ﷺ من مكة الى القدس وعرج به الى ما فوق السماء السابعة ورجع بمدة زمنية قصيرة جدا لم تتجاوز دقائق أو سويعات قليلة فكان فى ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى أن محمدا رسول الله ﷺ.

وقد يقول قائل: إن المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغى أن تكون مشاهدة يراها الناس، والإسراء والمعراج لم يرهما أحد وإنما أخبر عنهما محمد رسول الله ﷺ نفسه والإخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس.

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول ﷺ أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الإخبار عنها لو لا أنه أسرى به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس. إذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سألوه دليلا فقدم لهم جوابا عن كل ما سألوه وهذه أمثلة:

١- اخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى مالك عن أنس.. فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر.. هل لك فى صاحبك يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع فى ليلة؟ فقال أبو بكر: إن كان قاله فقد صدق. وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء. فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول؟ قال: مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الابل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما

قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه.

٣- أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى وصححه والبزار والطبرانى وابن مردويه عن شداد بن أوس: « . . فأتانى أبو بكر فقال: يا رسول الله . . أين كنت الليلة، فقد التمستك فى مظانك؟ فقلت: علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة. فقال: يا رسول الله . . إنه مسيرة شهر فصفه، قال: ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شئ إلا أنبأته عنه، قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله . فقال المشركون انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: إن من آية ما أقول لكم أننى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريبا من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله ﷺ.

وليس فى هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول فى القافلة وعليه غرارتان سوداوان.

٤- أخرج أحمد وابن أبى شيبة والنسائى والبزار والطبرانى وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبى. فقعد معتزلا حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ:

هل كان من شئ؟ قال: نعم. قال: وما هو؟ قال: انى أسرى بى الليلة. قال: الى أين ؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه اليه قال: أرأيت إن دعوت قومك

أتحدثهم ما حدثتنى؟ قال : نعم. قال: هيا معشر بنى كعب بن لؤى.. فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال رسول الله ﷺ :

إنى أسرى بى الليلة. قالوا: إلى أين ؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا قالوا: وتستطيع أن تنعت المسجد؟ وفى القوم من سافر إليه قال رسول الله ﷺ : فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت فجئ بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل – أو عقال – فنعته وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب.

٥ – أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه حدث عن ليلة أسرى به.. ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب: أنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى إلى السماء ثم رأيت كذا وكذا، فقال أبو جهل: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ قال: فأخبرهم بعير قريش قال: لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وأنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل: أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس فنظر اليه فقال: بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا.. فقال: صدقت.

٦– وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى قال: بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبى إلى قيصر صاحب الروم وذكر قصة اجتماع أبى سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبى سفيان إلى أن يذكر ما يلى على لسان أبى سفيان:

قلت: أيها الملك.. ألا أخبرك عنه خبرا فعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق ايلياء عند رأس قيصر قال البطريق: قد علمت تلك الليلة.. قال فنظر إليه القيصر وقال: ما علمك بها؟ قال: انى

كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع ان نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحا فلما أصبحت غدوت فاذا الحجر الذى من زاوية الباب منقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى وقد صلى الليلة فى مسجدنا، فقال قيصر: يا معشر الروم.. أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيا بشركم به عيسى؟ وهذا هو النبى الذى بشر به عيسى فأجيبوه إلى ما دعا إليه. فلما رأى نفورهم قال: يا معشر الروم.. دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم فى دينكم فشتمتوه وسببتموه وهو بين أظهركم.. فخروا له سجدا.

٧- وأخرج مسلم من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لقد رأيتنى من الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شئ الا نبأتهم به.

* * *

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هى السماء التى عرج إليها رسول الله ﷺ؟

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء فى كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوى لها. وذكر أحيانا السماء وأراد بها المعنى اصطلاحيا له ارتباط بالمعنى اللغوى، ففى اللغة كل ما علاك فهو سماء، قال الله تعالى: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ [الرعد: ١٧] ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فهنا قصد المعنى اللغوى فقط ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ [الشورى: ٥] ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ [الطلاق: ١٢] ذكرت هنا السماء بالمعنى الاصطلاحى.

«إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ليس

فيها موضع أربع أصابع إلا . . . » فالمقصود بالسموات هذه سكن الملائكة، والتى فيها الجنة فى السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، فهذه السموات هى التى عرج إليها رسول الله ﷺ كما سنرى فى الأحاديث بعد قليل. أما أين هى فالله أعلم بذلك. إذ هى من المغيبات عنا، أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هى هذه السموات فهذا خطأ ووهم، إذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فإذا ما ارتفع الإنسان فى الفضاء غابت فهى انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء.

وإذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعا، وعرشا فوقها، أثبتناها بإثبات الله إياها، وإخبار رسول الله ﷺ عنها، ولا نجزم بمكانها وإن كنا نجزم أنها فى جهة فوق بالنسبة لسكان الأرض، ولا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله ورسوله، هذه السموات هى التى كان إليها العروج وهى التى تصعد إليها أرواح البشر وتنزل الملائكة والروح منها.

ويتساءل آخرون: ما الحكمة فى الإسراء والمعراج؟

والحكمة – والله أعلم – تكمن فى ناحيتين:

الأولى: أن الله أرى رسوله ما دعا اليه فقد أمر الرسول ﷺ أن يدعو إلى الايمان بالجنة، ورأى الجنة وأن يدعو إلى الإيمان بالرسل ورأى الرسل. صلوات الله وسلامه عليهم، وإلى الإيمان بالملائكة ورأى الملائكة، والى الايمان بالله ورأى آثار قدرة الله وملكوته وقد ذكر الله فى القرآن:

﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ [الاسراء: ١].

الثانية: أن الله يعد رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية. هذه المرحلة تشبه المرحلة التى رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهى مجابهة فرعون.

فقد قال الله عن موسى: ﴿ **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** ﴾ [طه: ٢٣–٢٤] إن موسى الذى سيقابل فرعون الطاغية قد هئ بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله، وسيدنا رسول الله ﷺ كان مأمورا بالصبر طوال المرحلة المكية، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل. فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيدا لهذه المرحلة التى سيقف فيها رسول الله ﷺ بالقلة من أصحابه فى وجه الدنيا كلها. قال الله فى أوائل سورة النجم بعد

الحديث عن المعراج: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم: ١٨] ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة.

* * *

وأخيرا بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبدأ بذكر طرف عنها. قال الحافظ السيوطى:

اعلم أن الاسراء ورد مطولا ومختصرا من حديث أنس وأبى بن كعب وبريدة وجابربن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وشداد بن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن أسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن فرط وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبى أمامة وأبى أيوب وأبى حية وأبى الحمراء وأبى ذر وأبى سعيد الخدرى وأبى سفيان بن حرب وأبى ليلى الأنصارى وأبى هريرة وعائشة وأسماء بنتى أبى بكر وأم هانئ وأم سلمة.

وعد الامام القسطلانى فى «المواهب اللدنية» ستة وعشرين صحابيا وصحابية رووا حديث الاسراء والمعراج فهو إذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه فى سورتى الإسراء والنجم وهذه بعض روايات الحديث:

١- أخرج مسلم عن طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق - وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه - فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل:من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء

الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث اليه، ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع الى بك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم فرجعت إلى ربى فقلت: يا ربى.. خفف عن أمتى، فحط على خمسا فرجعت إلى موسى فقلت: حط عنى خمسا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى حتى قال: يا محمد.. إنهن خمس صلوات بكل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك الخمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه.

٢- وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: مررت ليلة أسرى بى على موسى قائما يصلى فى قبره.

٣- وأخرج احمد وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم وصححاه والنسائى وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن حذيفة أنه حدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ فقال: «ما زايل البراق حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عاد» ولفظ ابن مردويه: فأرى ما فى السموات وأرى ما فى الأرض.

٤- أخرج مسلم من طريق مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ فانتهى الى سدرة المنتهى وإليها ينتهى ما يصعد به - وفى لفظ: ما يعرج به - من الأرواح حتى يقبض منها وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض. ﴿ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى** ﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا المقمحات.

* * *

(٨)

وعندما يدعو رسول الله لإنسان فإنك تجد ما دعا له قد تحقق تماما كما دعا، وكثرة الحوادث فى هذا الموضوع تجعل الإنسان على اليقين الكامل أن محمدا رسول الله وأن الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه بقيمة الكلمة التى تخرج من فم رسول الله ﷺ.

وقد قال القاضى عياض فى «الشفاء»: إجابة دعوة النبى ﷺ لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة. وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: «كان النبى ﷺ إذا دعا للرجل أدركت ولده وولد ولده».

وهذه امثلة منتقاة من عشرات أو مئات الحوادث من نوعها فى كل منها دليل ما قلناه:

١- أخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن على رضى الله عنه قال بعثنى رسول

الله ﷺ الى اليمن فقلت: يا رسول الله.. تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء. فضرب بيده فى صدرى وقال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه. فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين.

٢- أخرج البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن: «بارك الله لك» وأخرجه ابن سعد والبيهقى من وجه آخر وزاد: قال عبد الرحمن: لقد رأيتنى ولو رفعت حجرا لرجوت ان أصيب تحته ذهبا أو فضة.

٣- أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: اللهم استجب لسعد إذا دعاك. فكان لا يدعو الا استجيب.

٤- أخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دعا لى النبى ﷺ فقال: «اللهم فقهه فى الدين» وأخرجه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة: «وعلمه التأويل» فصار حبر هذه الأمة ولا سيما فى علم التفسير.

وأخرج الامام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مسح رسول الله ﷺ رأسى ودعا لى بالحكمة فلم تخطئنى دعوة رسول الله ﷺ.

٥- أخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال:

اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ونحته فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبر النبى ﷺ بما كان منهما فقال ﷺ: لعل الله يبارك لكما فى ليلتكما. قال سفيان: قال رجل من الأنصار: فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

٦- أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: ما على وجه الأرض مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبنى، قلت: وما علمك بذلك؟ قال: إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى فقلت: يا رسول الله.. ادع الله أن يهدى أم أبى هريرة إلى الإسلام، فدعا لها فرجعت فلما دخلت البيت قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى من الفرح كما كنت أبكى من الحزن

وقلت: يا رسول الله.. قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة إلى الإسلام فادع الله أن يحببنى وأمى إلى عباده المؤمنين وأن يحببهم الينا، فقال ﷺ: اللهم حبب هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما. فما أعلم مؤمنا ولا مؤمنة إلا وهو يحبنى وأحبه.

٧- أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم بقوله:

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اقتنينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله. قال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله هلا أمتعتنا به؟ فلما تصاف القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودى فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه. وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه: فقال من هذا القائل؟ قالوا: عامر. قال: غفر لك ربك. قال: وما خص رسول الله ﷺ قط أحدا به الا استشهد، فقال عمر: لو لا متعتنا بعامر؟ أى ما استغفر لإنسان يخصه قط إلا استشهد.

٨- أخرج البخارى عن أبى عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله ابن هشام الى السوق ليشترى الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان: أشركنا فان رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها الى المنزل.

٩- أخرج الشيخان عن أبى بكر رضى الله عنه قال: طلبنا القوم فلم يدركنا منهم غير سراقة بن مالك على فرس له فقلت: يا رسول الله.. هذا الطلب قد لحقنا، قال: لا تحزن إن الله معنا. فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله ﷺ فقال: اللهم اكفناه بما شئت. فساخت به فرسه فى الأرض إلى بطنها فقال: يا محمد.. قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب. فدعا له ﷺ فانطلق راجعا.

١٠- أخرج البخارى فى «الأدب» والنسائى عن أم قيس أنها قالت: توفى ابنى

فجزعت فقلت للذى يغسله لا تغسل ابنى بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة بن محصن الى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها فتبسم ثم قال: طال عمرها. فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت.

١١- أخرج البيهقى وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال: سمعت النابغة - نابغة بنى جعدة - يقول: أنشدت رسول الله ﷺ شعرا فأعجبه فقال: جدت.. لا يفضض الله فاك. قال يعلى: فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن.

١٢- أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه الى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.. فمزقوا.

١٣- وروى البيهقى باسناد صحيح أنه ﷺ دعا على الحكم بن أبى العاص وكان يختلج بوجهه - أى يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه - استهزاء بالنبى ﷺ فقال: كن كذلك. فلم يزل يختلج الى أن مات.

١٤- وأخرج مسلم بن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أن رجلا أكل عند النبى ﷺ بشماله فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع قال: لا استطعت - ما منعه الا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه بعد.

* * *

(٩)

عندما تدرس حياة رسول الله ﷺ تجدك دائما أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التى لا دخل لعالم الاسباب فيها، ولا تستطيع أبدا أن تجد تعليلا لما تراه، أو نقل اليك نقلا صحيحا، إلا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم ﷺ ما تقوم به الحجة على الكافر، ويزداد به المؤمن يقينا ويخرج به الشاك عن شكه.

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعا آخر من أنواع معجزاته ﷺ أن نشير مرة ثانية

إلى أن هذه النقول هى أدق نقول تاريخية فى العالم. لأن معايير النقد التى وضعت لاستخراج صحيحها لا مثيل لها أبدا. مع ملاحظة أنها منقولة فى النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر، وقد رباهم رسول الله ﷺ على الصدق، وما كان أحدهم يسكت عن باطل رآه. فلو حدث أن صحابيا أخطأ فى النقل فانهم جميعا كانوا يردون عليه إذا بلغهم خطؤه، وإذن فنحن اذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق إلى ما بين يديه، ولئن كان فى الأخبار المروية عن الرسول ﷺ ما هو ضعيف فالعلة تكمن فى أجيال ما بعد الصحابة والتابعين. وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر ونحن نحاول ألا ننقل إلا ما كان ثابتا بعد النقد وإلا كشاهد. بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار تدور حول معنى واحد، يظهر فيه الإعجاز، وما ننقله فيه غيض من فيض وكثير مما نقلناه مروى بعدة روايات عن عدة صحابة ومخرج فى عدة كتب ولكنا اخترنا رواية من مجموعة روايات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات.

* * *

١- روى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فى قصة حفر الخندق قال: رأيت بالنبى ﷺ خمصا شديدا - وهو ضمور البطن من الجوع - فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة - وهى الصغيرة من أولاد المعز - وفى رواية عن جابر رضى الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاءوا الى النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق فقال: أنا نازل. ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبى ﷺ فضرب فعادت كثيبا أهيل فقلت: يا رسول الله.. ائذن لى إلى البيت فاذن فقلت لامرأتى: رأيت بالنبى ﷺ شيئا ما كان لى فى ذلك صبر، فعندك شئ؟ قالت: عندى شعير وعناق، فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ثم جئت النبى ﷺ والعجين قد اختمر والبرمة بين الأثافى - أى الأحجار التى توضع عليها القدر - كادت أن تنضج وقالت امرأتى: لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فسررته فقلت: يا رسول الله.. ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك

– يعنى دون العشرة – وفى رواية: فقلت: طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجلا أو رجلان، وكنت أريد أن ينصرف وحده قال: كم هو؟ فذكرت له: فقال: كثير طيب، قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى. فصاح النبى ﷺ: يا أهل الخندق.. إن جابرا صنع سؤرا فحيهلا بكم – أى هلموا مسرعين – والسؤر الطعام الذى يدعى إليه.

وفى رواية: فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال: ويحك.. جاء النبى ﷺ بالأنصار والمهاجرين ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. وفى رواية: قال: لقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق، فدخلت على امرأتى أقول: افتضحت.. جاء رسول الله بالجند أجمعين، فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا. وفى رواية: إنها خاصمته فى أول الأمر وقالت: بك بك. فلما أعلمها بأنه أعلم النبى ﷺ سكن ما عندها وقالت: الله ورسوله أعلم. لعلمها بإمكان خرق العادة ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها رضى الله عنها، واسمها سهيلة بنت معوذ الأنصارية.

فقال النبى ﷺ: لا تنزل برمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجئ. وفى رواية قال جابر: فجئت وجاء النبى ﷺ يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد الى برمتنا وبصق فيها وبارك – أى دعا بالبركة – ثم قال لجابر: ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها: اقدحى – أى اغرفى – من برمتكم ولا تنزلوها وهم – أى القوم الذين جاءوا معه – ألف وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا – أى مالوا عن الطعام – وإن برمتنا لتغط – أى لتغلى وتفور كما هى – وإن عجيننا ليخبز كما هو. وفى رواية فقال ﷺ لأصحابه: ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا أجمعين والتنور والقدر أملأ ما كانا فقال: كلى واهدى. فلم نزل نأكل ونهدى يومنا أجمع. وفى رواية: فأكلنا وأهدينا لجيراننا فلما خرج ﷺ ذهب ذلك.

٢– وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول

الله ﷺ فى غزوة فأصابنا جهد حتى همنا أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبى الله ﷺ فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع فتطاولت لأحرزكم هو فحرزته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حت شبعنا جميعا ثم حشونا جربانا ثم قال رسول الله ﷺ : هل من وضوء؟ فجاء رجل بإداوة له فيها نطفة ماء فأفرغها فى قدح فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة.

٣- وأخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله.. لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال عمر : يا رسول الله.. إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك الخير. فقال رسول الله ﷺ : نعم. فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ويجئ الآخر بكف تمر ويجئ الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شئ يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم: خذوا فى أوعيتكم. فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة. وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقى وأبو نعيم عن أبى عمرة الأنصارى رضى الله عنه وأخرجه ابن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلفظ:

خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلت: يا رسول الله.. خرج إلينا الروم وهم شباع ونحن جياع وأرادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم. فنادى فى الناس: من كان عنده فضل من زاد فليأتنا. فحزرنا جميع ما جاءوا به فوجوده سبعة وعشرين صاعا فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال: أيها الناس.. خذوا ولا تنتهبوا. فأخذوه فى الجرب والغرائر حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه حتى صدروا وإنه نحو ما كان يحزرون، فقال النبى ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يأتى بهما عبد بحق إلا وقاه الله حر النار.

٤- وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد

سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع فهل عندك من شئ؟ قالت: نعم.. فأخرجت أقراصا من شعير ثم ذهبت الى رسول الله ﷺ فقال: أرسلك أبو طلحة؟ قلت: نعم. فقال من معه: قوموا.. فجئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم.. قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم. قالت: الله ورسوله أعلم. فدخل رسول الله ﷺ فقال: هلمى ما عندك يا أم سليم. فأتت بذلك الخبز، فأمر به ففت وعصرت عليه عكة لها فأدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال: ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلا أو ثمانون. وأخرجه مسلم من عدة طرق وفى بعضها: ثم أكل رسول الله ﷺ وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم. وفى بعضها: فقال: بسم الله عظم فيه البركة.

٥- وأخرج الدارمى وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقصعة فيها طعام فتعاقبوها الى الظهر منذ غدوة يقوم قوم ويقعد آخرون فقال رجل لسمرة: هل كانت ثمد؟ قال: ما كانت ثمد إلا من هاهنا - وأشار إلى السماء.

٦- وأخرج البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قال: كنا مع النبى ﷺ ثلاثين ومائة فقال: هل مع أحد منكم طعام؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشترى منه شاة فأمر بها فصنعت وأمر رسول الله ﷺ بسواد البطن أن يشوى قال: وأيم الله ما من الثلاثين ومائة الا وقد حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها إن كان شاهدا أعطاه وإن كان غائبا خبأ له قال: وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير.

٧- وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: دعانى النبى ﷺ فقال: انطلق إلى المنزل فقل: هلموا الطعام الذى عندكم. فأعطونى صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لى: ادع أهل المسجد فقلت فى نفسى الويل لى مما أرى من قلة الطعام، والويل لى من المعصية، فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبى

ﷺ أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال: كلوا بسم الله. فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتها فاذا هى كهيئتها حين وضعتها الا أن فيها آثار أصابع النبى ﷺ.

٨- وأخرج أبو يعلى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم عن قيس بن النعمان رضى الله عنه قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنما فاستقياه اللبن فقال: ما عندى شاة تحلب غير أن ها هنا عناقا حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقى لها لبن. فقال ﷺ: ادع بها. فدعا بها فاعتقلها النبى ﷺ ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب هو ﷺ. فقال الراعى: من أنت.. فوالله ما رأيت مثلك قط؟ قال: محمد رسول الله. قال: أنت الذى تزعم قريش أنه صاب؟ قال: إنهم ليقولون ذلك. قال: فأشهد أنك نبى وأن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى.

٩- وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد كبدى على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على الطريق فمر بى أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى فمر ولم يفعل، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ثم قال: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق. ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لى فدخلت فوجد ﷺ لبنا فى قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان وفلانة، قال ﷺ: أبا هريرة..

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لى. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا فاذا أتته هدية أرسل اليهم فأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك وقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن بشربة أتقوى بها وأنى لرسول فاذا جاءوا أمرنى ﷺ أن أعطيه ما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال: أبا

هريرة . . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح أعطيه آخر فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت الى رسول الله ﷺ وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر إلى وتبسم وقال : يا أبا هريرة . قلت : لبيك يا رسول الله . قال : بقيت أنا وأنت . قلت : صدقت يا رسول الله . قال : اقعد فاشرب . فشربت . فقال : اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فأشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة ﷺ .

* * *

وبعد هذا ننتقل الى خاتمة هذا الباب :

تعقيب

إن المعجزة حجة على صحة دعوى الرسالة . غير أن بعض الناس يحاول أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلا على أنه لم تقم عليه الحجة بالمعجزة، والحقيقة أن هنا أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليست كذلك . والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا نقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة :

فى دمشق من بلاد الشام يرى الناس فى حى الأكراد ظاهرة عجيبة هى خروج رجل إنسان من قبر صاحبه، والرجل لم تتغير ولم تتبدل مع أن صاحبها متوفى من مئات السنين، ونسمع كثيرا عن أخبار ناس سحرة يأتون أشياء عجيبة، ونسمع كثيرا عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهنود، والرسول ﷺ أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال فى آخر الزمان ويروى لنا الثقات أن هناك ناسا من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة، فمثلا يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة كراماته تواترا .

فما مقام المعجزة التى تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء؟

كنا ذكرنا فى مقدمة هذه الأبواب أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أى تعلق . على خلاف السحر فإنه علم له قوانينه من

أتقنها ظهر على يده منه، وعلى خلاف الأعاجيب التى تظهر نتيجة الرياضات الروحية. فان ذلك أثر من أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح.

ومن هنا كانت هذه الأشياء فى الحقيقة نتائج عادية لمقدسات خاصة، أما معجزة الرسول ﷺ فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كونى وسبب، أما الخارقة للعادة التى تظهر على يد رجل صالح، فهى مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة.

ولكنها فى العادة لا تكون إلا على يد إنسان متمسك بحبل رسول الله ﷺ فهى أثر من آثار اتباع الرسول. فهى كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول. لأنه لو لا اتباعه للرسول ما أظهر الله علي يديه مثل هذه الخوارق، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة، والكرامة تظهر تأييدا لصاحب الرسالة على يد إنسان متبع للرسول.

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة إلا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله.

إن سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد إنسان كذاب فى دعوى الرسالة عنه، وهنا سر الفرق الحقيقى بين المعجزة وكل خارقة أخرى.

فصاحب الكرامة لا يدعى الرسالة، ولذا فان ظهورها على يده لا يجعل فى الأمر التباسا، خاصة وهو متبع لرسوله متمسك بشريعته.

وأما المسيح الدجال فليس يدعى الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييدا لها حاشا، ولكنه إنسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر إذ يدعى الألوهية ويظهر معه شئ من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشرى مسئولا، إذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الإنسان لا يمكن أن يكون هو الله. فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد، ولا يلتبس ما يظهر على يده بالمعجزة التى تقوم بها الحجة، لأنه لا يدعى الرسالة أصلا، ولو كان يدعى الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق.

وإذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو فى الحقيقة من هذا النوع.

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة.

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة، والكرامة إذا خرجت من أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة قائمة على البشر بها.

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها.

وأخيرا وقد انتهى هذا الباب.

نقول:

إن إنسانا يرى معجزة المعجزات بين يديه «القرآن» ثم لا يؤمن بأن محمدا رسول الله، أعمى القلب والعقل.

وإن إنسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليه السلام ثم لا يؤمن به، مظلم الوجدان والضمير.

وان إنسانا مثل هذا ليقولن فى يوم:

﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك: ١٠-١١].

* * *

وإلى الباب الثالث لنرى برهانا آخر على أن محمداً رسول الله ﷺ.

* * *